# النية والإخلاص

النية والإخلاص



يوسف القرضاوي

مكتبة وهبة

# النية والإخلاص

يوسف القرضاوي

# الفهرس

# تقديم

## من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

**بسم الله الرحمن الرحيم**

(قل إن صلاتي ونسكي ومحيـاي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا لـه الدين، ألا لله الدين الخالص)

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)

# تقديم

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، لا نبغي غيره ربا، ولا نتخذ غيره وليا، ولا نبتغي غيره حكما، ولا نشرك به ولا معه أحدا ولا شيئا، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

وأزكى صلوات الله وتسليماته على سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا محمد، الذي كانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له، كان كله لله، إذا تكلم فلله، وإذا صمت فلله، إذا غضب فلله، وإذا رضي فلله، إذا أحب فلله، وإذا أبغض فلله، إذا أعطى أو منع أو سالم أو حارب فلله، ولا شيء غير الله، وقد علمنا أن ندعو الله فنقول: "اللهم إنا نعوذ بك نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه".

ورضي الله عن أصحابه، الذين أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه، فهاجروا لله، وآووا ونصروا لله،

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وكان الله ورسـوله والجهاد في سبيله أحب إليهم من آبائهم وأبنـائهم وإخـوانهم وعشيرتهم وأموال اقترفوها، وتجـارة يخشـون كسـادها، ومساكن وأوطان يرضونها.. ورضي الله عمن سـار علـى دربهم إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فهذه الصحائف التي أقدمها لك - أخـي المسـلم - تتحدث عن شعبة أساسية من أرفع شعب الإيمان، وعن مقام من أعظم مقامات الدين، وخلق من أجل أخلاق الربانيين، هو "الإخلاص" الذي لا يقبل الله عملا إلا به، فبغيـره لا يكـون العمل مرضيا عند الله تعالى، كما قال سليمان عليه السـلام: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتـك فـي عبـادك الصالحين).

وإنما يرضي الله العمل الصالح في ذاته إذا تحقق فيه الإخلاص، وانتفى منه الشرك أكبره وأصغره، جليه وخفيه:

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صـالحا ولا يشـرك بعبادة ربه أحدا).

ولا يتم الإخلاص إلا بتوافر النية الصادقة، وتجريدها لله، وتخليصها من الشوائب والرغبـات الذاتيـة والدنيويـة، ومعنى هذا: أن يفني الإنسان عن حظـوظ نفسـه، ويتعلـق بربه، فيمنحه القوة من الضعف، والأمن من الخوف، والغنى من الفقر.

وأرجو أن تجد أخي المسلم في هذه الصـحائف مـا يعينك على جهاد نفسك، ومقاومة شهواتها الخفية، وهي أشد خطرا من الشهوات الظاهرة، حتى تخلص لله، وتكون كلـك لله: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسـن فقـد استمسـك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور).

اللهم اجعلنا من الذين إذا علموا عملوا، وإذا عملـوا أخلصوا، وإذا أخلصوا قبلوا عندك يا رب العالمين.. اللهـم آمين.

**الفقير إلى الله تعالى**

**يوسف القرضاوي**

# الفصل الأول
# معنى الإخلاص وضرورته للسالكين إلى الله

## تمهيد

الإخلاص: عمل من أعمال القلوب، بل هو في مقدمة الأعمال القلبية، لأن قبول الأعمال لا يتم إلا به.

والمقصود بالإخلاص: إرادة وجه الله تعالى بالعمل، وتصفيته من كل شوب ذاتي أو دنيوي، فلا ينبعث للعمل إلا لله تعالى والدار الآخرة، ولا يمازج عمله مـا يشـوبه مـن الرغبات العاجلة للنفس، الظاهرة أو الخفية، من إرادة مغنم، أو شهوة، أو منصب، أو مال، أو شهرة، أو منزلة في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، أو الهرب من ذمهـم، أو إرضـاء لعامة، أو مجاملة لخاصة، أو شفاء لحقد كامن، أو اسـتجابة لحسد خفي، أو لكبر مستكن، أو لغير ذلك من العلل والأهواء والشوائب، التي عقد متفرقاتها هو: إرادة ما سوى الله تعالى بالعمل، كائنا من كان، وكائنا ما كان.

وأساس إخلاص العمل: تجريد "النية" فيه لله تعالى.

والمراد بالنية: انبعاث إرادة الإنسان لتحقيق غرض مطلوب له.

فالغرض الباعث هو: المحـرك لـلإرادة الإنسـانية لتندفع للعمل، والأغراض الباعثة كثيرة ومتنوعـة، منهـا، المادي والمعنوي، ومنها: الفـردي والاجتمـاعي، ومنهـا: الدنيوي والأخروي، ومنها التافه الحقير، والعظيم الخطيـر، منها ما يتعلق بشهوة البطن والجنس، ومنها ما يتصل بلـذة العقل والروح، منها ما هو محظور، ومنها ما هـو مبـاح، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو واجب.

وإنما يحدد هذه البواعث: عقائد الإنسان وقيمه التـي يؤمن بها، ومعارفه وأفكاره ومفاهيمه التي كونها بالدراسة أو بالتجربة، أو بتأثير البيئة، وبالتقليد للآخرين.

والمؤمن الحق هو الذي غلب باعث الدين في قلبـه باعث الهوى، وانتصرت حوافز الآخرة على حوافز الـدنيا، وآثر ما عند الله تعالى على ما عند الناس، فجعل نيته وقوله

وعمله لله، وجعل صلاته ونسـكه ومحيـاه ومماتـه لله رب العالمين، وهذا هو الإخلاص.

## الإخلاص من ثمرات التوحيد الخالص

والإخلاص بهذا المعنى: ثمرة من ثمرات "التوحيـد" الكامل لله تبارك وتعالى، الذي هو إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستعانة، والذي يعبر عنه قوله سبحانه في فاتحة الكتـاب وأم القرآن: (إياك نعبد وإياك نستعين).

والذي يناجي به المسلم ربه في صلواته كل يوم مـا لا يقل عن سبع عشرة مرة.

وبهذا الإخلاص المتجرد: يـتخلص مـن كـل رق، ويتحرر من كل عبودية لغير الله: عبودية الدينار، والدرهم، والمرأة والكأس، والزينة والمظهـر، والجـاه والمنصـب، وسلطان الغريزة والعادة، وكل ألوان العبودية للـدنيا التـي استسلم لها الناس، ويكون كما أمـر الله رسـوله: (قـل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

# ضرورة الإخلاص للسالكين

وقد أجمع الربانيون - من رجال التربية الروحية، وأهل الطريق إلى الله - على أهمية الإخلاص وضرورته لكل عمل من أعمال الآخرة، وكل سالك للطريق.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي في مقدمة كتاب "النية والإخلاص والصدق" من ربع المنجيات من "الإحياء":

"قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان، وأنوار القرآن: أن لا وصول إلى السعادة، إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)".

وما قاله الغزالي سبق بنحوه العارف الرباني سـهل بن عبد الله التستري، حيث قال: النـاس كلهـم سـكارى إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارى، إلا من عمل بعلمه.

وفي لفظ آخر قال: الدنيا جهل ومـوت، إلا العلـم، والعلم كله حجة (أي على صاحبه)، إلا العمل به، والعمل كله هباء، إلا الإخلاص، والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به.

وقال بعضهم: العلم بـذر، والعمـل زرع، ومـاؤه الإخلاص.

وقال ابن عطاء الله في "حكمه":

إن الله لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك هو لا يقبله، والقلب المشترك هو لا يقبـل عليه.

إن العلم الذي لا يصحبه الإخلاص صورة بلا حياة، وجثة بلا روح، والله تعالى إنما يريد من الأعمال حقائقها لا

رسومها وصورها، ولهذا يرد كل عمـل مغشـوش علـى صاحبه، كما يرد الصيرفي الناقد العملة المزيفة.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريـرة عـن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلـى أجسـادكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" وأشار بأصبعه إلى قلبه. وقال: "التقوى ههنا" وأشار إلى صدره ثلاث مرات.

وقال تعالى في شأن قرابين الهدى والأضاحي التـي يقدمها الحجاج والمعتمرون: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم).

## الإخلاص مطلوب لصلاح الحياة

وليس تشديد الإسلام في طلب الإخـلاص، وتأكيـده على تجريد النية لله، وتصحيح الاتجاه إليه وحده: ضربا من التزمت أو العبث، فإن الحياة نفسها لا تستقيم ولا ترتقـي إلا بالمخلصين، وأكثر ما يصيب الأمم والجماعات من النكبـات والكوارث القاصمة إنما يجره عليها أنـاس لا يرجـون الله والدار الآخرة .. أناس من عبيد الدنيا، وعشاق الثروة، الذين

لا يبالون ـ في سبيل دنياهم وشهوات أنفسهم ـ أن يدمروا دنيا الآخرين ودينهم معا، وأن يحولوا الأبنية إلى خرائـب، والمنازل إلى مقابر، والحياة إلى موات.

أو أناس من طلاب الزعامة والسلطة، وعبيد الشهرة والجاه، وعشاق المجد الشخصي، والبطولة بغير الحق، إنهم في سبيل الحصول على المجد والسـلطان، أو فـي سـبيل الحفاظ على ما أدركوا منه، لا يبـالون أن يخربـوا ديـارا، ويدمروا أمة بل أمما بأسرها، لا لشـيء إلا لتصـفق لهـم الأيدي، وتهتف لهم الحناجر، وتنطلـق بـإطرائهم الأقـلام، وتسبح بحمدهم الجماهير المسكينة المخدوعة، ويـدوم لهـم الاستمتاع بكراسي الحكم الوثيرة! وشعار كل منهم: أنـا أو يخرب العالم من بعدي!!

إن الإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش بوجهين: وجه لله، ووجه لشركائه، ولا أن تنقسم حياته إلى شطرين: شـطر لله وشطر للطاغوت، الإسـلام يـرفض الثنائيـة المقيتـة، والازدواجية البغيضة، التي نشهدها في حياة المسلمين اليوم، فنجد الرجل مسلما في المسجد أو في شهر رمضان، ثم هـو

في حياته، أو في معاملاته، أو في مواقفه إنسـان آخـر، إن الإخلاص هو الذي يوحد حياة المسلم، ويجعلها كلها لله، كما يجعله كله لله، فصـلاته ونسـكه ومحيـاه ومماتـه لله رب العالمين.

# الفصل الثاني

# أهمية النية في تحقيق الإخلاص

## استحضار النية وتجريدها لله

لا يتحقق الإخـلاص فـي العمـل إلا بعنصـرين أساسيين:

الأول: استحضار النية فيه، فإنما الأعمال بالنيـات، ومن أدى العمل أداء آليا، بغير نية طيبة أو خبيثة، لم يـدخل في زمرة المخلصين.

والثاني: تجريدها من الشوائب الذاتية والدنيوية، حتى تخلص لله سبحانه.

## أهمية النية في القرآن الكريم

والقرآن يعبر عن هذه النية المشـروطة بعبـارات مختلفة مثل: إرادة الآخـرة، أو إرادة وجـه الله، أو ابتغـاء وجهه، أو ابتغاء مرضاته.

يقول تعالى: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريـد الآخرة).

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يـرد ثـواب الآخرة نؤته منها).

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتهـا نـوف إلـيهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم فـي الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها وباطـل مـا كـانوا يعملون).

فهؤلاء هم عبيد الدنيا، الذين جعلوا لها كل إرادتهـم وسعيهم.

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشـاء لمـن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومـن أراد

الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئـك كـان سـعيهم مشكورا).

قسمت الآيتان الناس إلى قسمين: مريد العاجلة، وهي الدنيا، بمعنى أنه ليس له هدف سواها، ومصيره ما ذكـرت الآية: جهنم، ومريد الآخرة، الذي جعلها هدفه، وسعى لهـا سعيها، فمصيره ما ذكرت الآية.

الجزاء إذن مرتب على "الإرادة" و"المراد"، فخبرني: ما مرادك وقصدك؟ أخبرك: ما مصيرك وجزاؤك!

وهذا المعنى تكرر ي القرآن: (من كان يريد حـرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتـه منها وما له في الآخرة من نصيب).

(ولا تطرد الذين يدعون ربهـم بالغـداة والعشـي يريدون وجهه).

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجـه الله فأولئـك هـم المضعفون).

(وسيجنبها الأتقى، الذي يؤتى ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى).

(وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله).

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضـات الله).. الآية.

(لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومـن يفعـل ذلـك ابتغـاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما).

وأود أن أنبه هنا: أنه لا تعارض بين إرادة الله تعالى وإرادة الآخرة، بل لا ثنائية، فلا معنى لتعليق من علق علـى قوله تعالى: (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريـد الآخـرة) بقوله: فأين من يريد الله؟ لأن الذين يريدون الآخرة ما أرادوا إلا الله، فإرادة الآخرة تعني: إرادة مثوبته ورضوانه، ورجاء ما عنده سبحانه.

ولا يعاب المخلص بأنه يرجو الجنة ويخاف النـار، فقد وصف القرآن الأنبياء والصالحين بالرجـاء والخـوف، والرغب والرهب، وليس بعد القرآن بيان.

والجنة ليست دار النعيم الحسي فحسب، بل هي دار الرضوان الأكبر، والتنعم بالنظر إلى وجه الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة) فأما الكفار فإنهم عن ربهـم يومئذ لمحجوبون، وهذا الحجاب هو أقسى العذاب.

## أهمية النية في السنة

أما السنة فقد ورد فيها الكثيـر فـي فضـل النيـة والإخلاص، أذكر منها بعض ما انتقيته مما ذكـره الإمـام المنذري في كتابه "الترغيب والترهيب"، وقد بدأها وبدأ كتابه كله بحديث الثلاثة أصحاب الغار، وهو حديث متفق عليـه، وسأذكره بعد، عند الحديث عن ثمرات الإخلاص.

وثنى بحديث أبى أمامة: فيمن سأل عمن غزا يلتمس الأجر والذكر (أي الأجر من الله والذكر عند الناس) وأجاب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات: "لا شيء لـه"! ثـم

قال: "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا، وابتغى به وجهه" (رواه النسائي بإسناد جيد، وسيأتي بلفظه).

ثم ثلث بحديث عمر المشهور: "إنما الأعمال بالنية - وفي رواية: بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (رواه البخاري ومسلم، وأبو داود والترمذي والنسائي).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم". قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: "يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم" (رواه البخاري ومسلم وغيرهم).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما يبعث الناس على نياتهم" (رواه ابن ماجه بإسناد

حسن)، ورواه أيضا من حديث جابر إلا إنه قـال: "يحشـر الناس".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: رجعنا مـن غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن أقوامـا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا، حبسـهم العذر" (رواه البخاري، وأبو داود)، ولفظه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسـيرا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم" قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنـا وهـم بالمدينـة؟ قـال: "حبسهم المرض".

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم" (رواه مسلم).

وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سـمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه" قال: "ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم

عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد بـاب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر" (أو كلمة نحوها).

"وأحدثكم حديثا فاحفظوه" قال: "إنما الـدنيا لأربعـة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقـه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لـي مالا لعلمت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرهما سـواء، وعبـد رزقه الله مالا، ولم يرزقه علما، يخبط في ماله بغير علـم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهـو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فـلان، فهـو بنيتـه، فوزرهما سواء" (رواه أحمد والترمذي واللفظ لـه، وقـال: حديث حسن صحيح).

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله عز وجل: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فـلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلهـا، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإن أراد أن يعمل حسنة

فلم يعملها اكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها لـه بعشـر أمثالها، إلى سبعمائة" (رواه البخاري، واللفظ له، ومسلم).

وفي رواية لمسلم قال: عن محمد رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال: "قال الله عز وجل: "إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدث عبدي بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي".

قوله: "من جراي" ـ بفتح الجيم وتشديد الـراء ـ : أي من أجلي.

وعن معن بن يزيد رضي الله عنهما قال: كان أبـي "يزيد" أخرج دنانير يتصدق بها، فوضعها عند رجـل فـي المسجد، فجئت فأخذتها فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: "لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن" (رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: "قال رجل: لأتصدقن [الليلة] بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سـارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن بصدقة، فخـرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصـدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يـد غنـي، فأصـبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني، فأتى (أي في المنام) فقيـل لـه: أمـا صدقتك على سارق: فلعله أن يستعف عـن سـرقته، وأمـا الزانية، فلعلها أنت تستعف من زناها، وأما الغني فلعلـه أن يعتبر، فينفق مما أعطاه الله" (رواه البخاري - واللفظ لـه - ومسلم والنسائي)، وقالا فيه: "أما صدقتك فقد تقبلت" ثم ذكر الحديث.

دلت هذه الأحاديث الوفيرة وغيرها - مع ما جاء في كتاب الله - على قيمة النية وأهميتها في الـدين، وأن روح العمل هي "النية"، ولكن ما هي النيـة التـي رتبـت عليهـا الأحاديث كل هذه النصائح؟

# حقيقة النية

قال الجوهري في الصحاح: النية العزم.

وقال الخطابي: هي قصدك الشيء بقلبك، وتحرى الطلب منك له.

وقال البيضاوي: هي انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض، من جلب نفع، أو دفع ضر، حالا أو مالا.

قال: والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل، ابتغاء لوجه الله تعالى، وامتثالا لحكمه.

وقال العراقي في شرح التقريب: اختلف في حقيقة النية، فقيل: هي الطلب، وقيل: الجد في الطلب، ومنه قول ابن مسعود: من ينو الدنيا تعجزه، أي من يجد في طلبها.

وقال الزركشي في قواعده: حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين، والمشهور: أنها مطلق القصد إلى الفعل.

وقال الماوردي: النية قصد الشيء مقترنا بفعله، فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم.

## النية إرادة جازمة

ولا ريب أن النية التي صحت بها الأحاديث النبوية، التي سقنا عددا منها، وترتب عليها الجزاء ثوابا وعقابا - وإن لم يقترن بها عمل - إنما تتمثل في الإرادة الجازمة المصممة المتوجهة نحو الفعل، خيرا كان أم شرا، واجبا أو مستحبا، أو محظورا، أو مكروها، أو مباحا، ولهذا تكون أحيانا نية صالحة محمودة، وأحيانا نية سيئة مذمومة، حسب المنوى: أي شيء هو؟ وحسب المحرك الباعث: أهو الدنيا أم الآخرة؟ أهو وجه الله أم وجوده الناس؟

وليست النية إذن مجرد خاطرة تطرأ على القلب لحظة ثم لا تلبث أن تزول، فلا ثبات لها، يقول صلى الله عليه وسلم: "إن الله عفا عن أمتي ما حدثت بها أنفسها، ما لم تعمل به، أو تتكلم به"، وهذا يؤيد ما قاله بعضهم من أن النية ليست مجرد الطلب، بل الجد في الطلب.

وعلى هذا الأساس رأينا في الحديث: الفقير الـذي لا مال له، يحصل ـ ببصيرته وصدق نيته ـ أجر الغنى الذي أنفق وتصدق في سبيل الله، قال: "فهما في الأجر سواء".

ورأينا في مقابله: الفقير الذي عاش حياته في الفقـر والبؤس، يحصل ـ بغبائه وسوء نيته ـ وزر الغني الـذي أنفق ماله في الشهوات ومعصية الله.

كما رأينا الحديث يحكم علـى المسـلمين المقتتلـين بأنهما في النار، القاتل بقتله، والمقتول، لأنه كـان حريصـا على قتل صاحبه، وذلك إذا كان اقتتالهما لأجل الدنيا.

## النية محلها القلب

وهذه النية عمل قلبي خالص، وليست مـن أعمـال اللسان، ولذا لم يعرف عن النبي صلى الله عليـه وسـلم ولا عن أصحابه ولا عن تابعيهم بإحسان من سلف الأمة: التلفظ بالنية في العبادات، مثل الصلاة والصيام والغسل والوضوء، ونحوها، وهو ما نرى بعض الناس يجهـدون أنفسـهم فـي الإتيان به، مثل قولهم: نويت رفع الحدث الأصغر أو الأكبر،

أو نويت صلاة الظهر أو العصر أربـع ركعـات علـى لله العظيم، أو نويت الصيام غدا في شهر رمضان.. الخ، وكـل هذا لم يأت به قرآن ولا سنة. ولا معنـى لـه، إذ لا يقـول الإنسان إذا أراد الذهاب إلى السوق: نويـت الـذهاب إلـى السوق، أو إذا نوى السفر: نويت السفر! ونقل الزركشي عن الغزالي في فتاويه قوله: أمر النية سهل في العبادات، وإنمـا يتعسر بسبب الجهل بحقيقة النية أو الوسوسة.

## الأعمال بمقاصدها

ولأهمية النية في توجيه العمل وتكييفه وتحديد نوعه وقيمته، استنبط العلماء قاعدة فقهية من أرسخ قواعد الفقـه، التي عنيت بها كتب القواعد والأشباه والنظائر، وهي: الأمور بمقاصدها، وفرعوا عليها فروعا كثيرة، منها: العبـرة فـي العقود للمقاصد والمعاني، لا للألفاظ والمباني.

ومن فروعها ما عبر عنـه الحـديث: "إن الله عفـا لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه".

كما استشهد الإمام البخاري - رحمه الله - بحديث: "إنما الأعمال بالنيات" على إبطال "الحيل" التي ينسب إلى بعض الفقهاء الإفتاء بجوازها، ومعناها: أن العبرة بالصورة لا بالحقيقة، وبالشكل لا بالجوهر، وباللفظ لا بالمعنى.

وهذا ما رفضه المحققون من العلماء، وأقاموا عليه الأدلة الناصعة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن هدي الصحابة وسلف الأمة.

## تنوع جزاء العمل الواحد بتنوع نيته

ومن تأثير النية في الأعمال: أن العمل الواحد يتنوع حكمه الشرعي، وقيمته الأخلاقية، وجزاؤه الأخروي، تبعا لنية صاحبه.

ومن الأمثلة التي ذكرها الحديث لذلك، اقتناء الخيل، فهي لرجل واحد، ولآخر وزر، ولثالث ستر، أو كما سماها حديث آخر: "فرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان" وما ذلك إلا بسبب النية والقصد.

روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار مرفوعـا: "الخيل ثلاثة: فرس يرتبطه الرجل في سبيل الله، فثمنه أجر، وركوبه أجر، وعاريته أجر.. وفرس يغالق عليـه الرجـل ويراهن (فرس القمار)، فثمنه وزر، وركوبه وزر.. وفـرس للبطنة، فعسى أن يكون سدادا من الفقر إن شاء الله".

وروى عن ابن مسعود: "الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن، فالذي يرتبط في سبيل الله عز وجل، فعلفه وبوله وروثه - وذكـر ما شاء الله - (يعني في ميزان صاحبه حسنات كما صح في حديث آخر)، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر عليه ويراهن، وأما فرس الإنسان، فالفرس يرتبطها الإنسان، يلتمس بطنهـا (أي نتاجها) فهي ستر من فقر".

وقد جاء هذا التقسيم الثلاثي فـي الصـحيحين مـن حديث أبي هريرة.

وقال الحافظ السيوطي: قال العلماء: النية تؤثر فـي الفعل، فيصير بها تارة حراما، وتـارة حـلالا، وصـورته

واحدة، كالذبح مثلا، فإنه يحل الحيوان إذا ذبـح لأجـل الله، ويحرمه إذا ذبح لغير الله، والصورة واحدة.

وقال المحقق ابن القيم في كتاب "الـروح": الشـيء الواحد تكون صورته واحدة، وهو ينقسم إلى محمود ومذموم، فمن ذلك: التوكل والعجز، والرجـاء والتمنـي، والحـب لله والحب في الله، والنصـح والتأنيـب (التشـهير)، والهديـة والرشوة، والإخبار بالحال والشكوى، فإن الأول من كل مـا ذكر محمود، وقرينه مذموم، والصورة واحـدة، ولا فـارق بينهما إلا القصد.

## النية ومقاصد الشريعة

وفي "إعلام الموقعين" أسهب ابن القيم في بيان أهمية النية والقصد في تحديد قيمة العمل، وأن العملية قـد تكـون صورتهما واحدة، وهذا قربة صحيحة وهذا معصية باطلـة. وذلك بسبب النية والقصد.

"من ذلك: عصر العنب بنية أن يكون خمرا معصية، ملعون فاعله على لسان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم،

وعصره بنية أن يكون خلا أو دبسا جائز وصورة الفعل واحدة.

وكذلك السلاح يبيعه الرجل لمن يعرف أنه يقتل به مسلما حرام باطل لما فيه من الإعانة على الإثم والعدوان، وإذا باعه لمن يعرف أنه يجاهد به في سبيل الله فهو طاعة وقربة.

وكذلك عقد النذر المعلق على شرط ينوي به التقرب والطاعة، فيلزمه الوفاء بما نذره، وينوي به الحلف والامتناع فيكون يمينا مكفرة.

وكذلك تعليق الكفر بالشرط ينوي به اليمين، والامتناع فلا يكفر بذلك، وينوي به وقوع الشرط فيكفر عند وجود الشرط وصورة اللفظ واحدة.

وكذلك ألفاظ الطلاق صريحها وكنايتها ينوي بها الطلاق فيكون ما نواه، وينوي به غيره فلا تطلق.

وكذلك قوله "أنت عندي مثل أمي" ينوي به الظهار فتحرم عليه، وينوي به أنها مثلها في الكرامة فلا تحرم عليه.

وذلك من أدى عن غيره واجبا ينوي به الرجوع ملكه، وإن نوى به التبرع لم يرجع.

وهذه كما أنها أحكام الرب تعالى في العقود، فهي أحكامه تعالى في العبادات والمثوبات والعقوبات، فقد اطردت سنته بذلك في شرعه وقدره.

أما العبادات فتأثير النيات في صحتها وفسادها أظهر من أن يحتاج إلى ذكره، فإن القربات كلها مبناها على النيات، ولا يكون الفعل عبادة إلا بالنية والقصد، ولهذا لو وقع في الماء ولم ينو الغسل، أو دخل الحمام للتنظيف، أو سبح للتبرد، لم يكن غسله قربة ولا عبادة بالاتفاق، فإنه لم ينو العبادة فلم تحصل له، وإنما لامرئ ما نوى.

ولو أمسك عن المفطرات عادة واشتغالا ولم ينو القربة، لم يكن صائما.

ولو دار حول البيت يلتمس شيئا سقط منه لـم يكـن طائفا.

ولو أعطى الفقير هبة أو هدية ولم ينو الزكـاة لـم يحسب زكاة.

ولو جلس في المسجد ولم ينو الاعتكاف لم يحصـل له.

وهذا كما أنه ثابت في الإجزاء والامتثال فهو ثابـت في الثواب والعقاب، ولهذا لو جامع أجنبية يظنها زوجته لـم يأثم بذلك، وقد يثاب بنيته.

ولو جامع في ظلمة من يظنها أجنبية، فبانت زوجته أثم على ذلك بقصده ونيته للحرام.

ولو أكل طعاما حراما يظنه حلالا لم يأثم به، ولـو أكله وهو حلال يظنه حراما وقد أقدم عليه أثم بنيته.

وكذلك لو قتل من يظنه مسلما معصوما فبان كـافرا حربيا أثم بنيته، ولو رمى صيدا فأصاب معصوما لم يـأثم،

ولو رمى معصوما فأخطأه وأصاب صيدا أثم، ولهذا كان القاتل والمقتول من المسلمين في النار لنية كل واحد منهما قتل صاحبه.

فالنية روح العمل ولبه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، والنبي صلى الله عليه وسلم قد قال كلمتين كفتا وشفتا وتحتهما كنوز العلم، وهما قوله: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

فبين في الجملة الأولى: أن العمل لا يقع إلا بالنية، ولهذا لا يكون عمل إلا بنية.

ثم بين في الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه، وهذا يعم العبادات والمعاملات والإيمان والنذور وسائر العقود والأفعال.

وهذا دليل على أن من نوى بالبيع عقد الربا حصل له الربا، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع.

وأن من نوى بعقد النكاح التحليل كـان محلـلا، ولا يخرجه من ذلك صورة عقد النكاح، لأنه قد نوى ذلك، وإنما لامرئ ما نوى، فالمقدمة الأولى معلومة بالوجدان، والثانيـة معلومة بالنص.

وعلى هذا فإذا نوى بالعصر حصول الخمر كان لـه ما نوى، ولذلك استحق اللعنة.

وإذا نوى بالفعل التحيل على ما حرمه الله ورسوله، كان له ما نواه، فإنه قصد المحرم وفعل مقدوره في تحصيله، ولا فرق في التحيل على الحرم بين الفعل الموضوع له وبين الفعل الموضوع لغيره إذا جعل ذريعة له، لا في عقل ولا في شرع، ولهذا لو نهى الطبيب المريض عما يؤذيه وحماه منه فتحيل على تناوله عد متناولا لنفس ما نهي عنه".

## أثر النية في المباحات والعاديات

ومن أهم ما تؤثر فيه النية: المباحـات والعاديـات، فإنها تتحول بالنية إلى عبادات وقربات، فالعمل لكسب الرزق في زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة أو وظيفـة، يغـدو

عبادة وجهادا في سبيل الله، إذا كان عمله ليعف نفسه عن الحرام، ويغنيها بالحلال.

والأكل والشرب واللبس والتجمل كذلك، إذا كان يستعين بذلك على طاعة الله، وأداء واجبه نحو ربه وأهله وأمته، وإظهارا لنعمة الله عليه، ففي الحديث: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده".

وقد مر بنا حديث سعد بن أبي وقاص: أن المؤمن يؤجر في كل عمل يبتغي به وجه الله، حتى في اللقمة يرفعها إلى فم امرأته.

وأعجب من ذلك: أن شهوة الجنس إذا قضاها المؤمن في الحلال، كان له فيها أجر ومثوبة عند الله، وفي هذا جاء الحديث الصحيح: "وفي بضع أحدكم صدقة" قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ كذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر".

## النية لا تؤثر في الحرام

وإذا كان هذا هو تأثير النية في كل تلك المجـالات، فمن المتفق عليه أنها لا تؤثر في الحـرام، فحسـن النيـة، وشرف القصد، لا يحيل الحرام حلالا، ولا ينزع منه صـفة الخبث التي هي أساس تحريمه.

فمن أكل الربا، أو اغتصب مالا، أو اكتسـبه بـأي طريق محظور، بنية أن يبني به مسجدا أو ينشئ دارا لكفالة اليتامى، أو يؤسس مدرسة لتحفيظ القرآن، أو ليتصدق بهـذا المال الحرام على الفقراء وأهل الحاجة، أو غير ذلـك مـن وجوه الخير، فإن هذه النية الطيبة لا أثر لها، ولن تخفف عنه وزر الحرام، فقد أكدت الأحاديث الصحيحة: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا".

وفي حديث ابن مسـعود: "إن الله لا يمحـو السـيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيـث لا يمحـو الخبيث".

والحرام لا تطهره الصدقة ببعضه، بـل لابـد مـن الخروج عنه كله، ثم إن المال الحرام ليس مملوكـا لحـائزه

حتى يجوز له التصدق منه، بل هو مملوك لصاحبه الأصلي، فلا يقبل منه إلا أن يرده إليه أو إلى ورثته.

وبهذا يتبين لنا أن الإسلام يرفض مبدأ "الغاية تبـرر الوسيلة"، ولا يقبل إلا الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة، فلابـد من شرف الغاية وطهارة الوسيلة معا.

## إخلاص النية أساس القبول

ولابد من استحضار النية من تجريـدها مـن كـل الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية، وإخلاصها لله تعالى في كل عمل من أعمال الآخرة، حتى يجوز القبول عند الله.

ذلك أن لكل عمل صالح ركنين لا يقبل عنـد الله إلا بهما:

أولهما: الإخلاص وتصحيح النية.

وثانيهما: موافقة السنة ومنهاج الشرع.

وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن، وبالثاني تتحقق صحة الظاهر، وقد جاء في الركن الأول قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات"، فهذا هو ميزان الباطن.

وجاء في الركن الثاني قوله صلى الله عليه وسـلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" أي مـردود علـى صاحبه، وهذا ميزان الظاهر.

وقد جمع الله الركنين في أكثر من آية في كتابه، فقال تعالى: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسـك بالعروة الوثقى)، (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهـو محسن).

وإسلام الوجه لله: إخلاص القصـد والعمـل لـه.. والإحسان فيه: أداؤه على الصورة المرضية شرعا، ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته.

وقد مر بنا قول الفضيل بن عياض: "إن العمـل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صـوابا ولـم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا وصوابا، والخالص:

أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السـنة .. ثـم قـرأ الفضيل قوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عمـلا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد).

ومما روى عن ابن مسعود: لا ينفع قول إلا بعمـل، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية، ولا ينفع قول وعمل ونيـة إلا مما وافق السنة.

وقال ابن عجلان: لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة (يعني: أن يؤدي علـى وجـه الصواب شرعا).

نعلم مما تقدم أن إخلاص النية لا يكفي وحده لقبـول العمل، ما لم يكن موافقا لما جاء به الشـرع وصـحت بـه السنة، كما أن ورود الشرع بالعمل لا يرقى به إلـى درجـة القبول ما لم يتحقق فيه الإخلاص، وتجريد النية لله عز وجل، وأي عمل من أعمال الآخرة فقد الإخلاص، فلا قيمة له فـي ميزان الحق، يقول ابن عطاء الله: الأعمـال صـور قائمـة (كالتماثيل) وروحها وجود سر الإخلاص فيها.

بدون الإخلاص إذن لا يقبل عمل مهما يكن ظـاهره الخير والصلاح.

## بناء المسجد لغرض فاسد

وأضرب لذلك مثلين:

الأول: هو بناء مسجد.

فلا ريب أن للمسجد مكانتـه وأثـره فـي الحيـاة الإسلامية، فهو دار للعبـادة، ومدرسـة للـدعوة، ومنتـدى للتعارف، ولهذا حث الإسلام على إنشاء المساجد وعمارتها، والعناية بها، ووعد على ذلك بأجزل المثوبة عند الله، حتـى جاء في الحديث: "من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة".

ولكن الحديث النبوي الشريف ينبهنا علـى أن هـذا الثواب لمن بنى مسجدا "يبتغي به وجه الله" لا لكل من بنـى مسجدا.. فإذا كان بناء المسجد لغرض فاسد، وقصد سـيئ، فإنه يكون وبالا على من أقامه وأسسـه، إن النيـة الخبيثـة

تنضح على هذا العمل الطيب فتنحرف به، وتحيـل خيـره شرا، وأجره وزرا.

وفي هذا الأمر جاءت قصة "مسجد الضرار" التـي نزل فيها قرآن يتلى، ليبين للناس أن "النوايا الشريرة" تفسـد المؤسسات الصالحة، وتذهب بكل ما فيها من خير، ونعنـي بالمؤسسات الصالحة: التي تتخذ الصلاح عنوانا لها ومظهرا، أو التي يفترض فيها الصلاح والخير والتقوى، قال تعـالى: (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المـؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبدا، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجـال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين).

## الجهاد لغرض دنيوي

والمثل الثاني: هو الجهاد.

وهو أفضل عبادة يتطوع بها مسلم ويتقرب إلى ربه بها، ومع هذا لا يقبله الله حتى يخلص مـن كـل الشـوائب

الدنيوية، مثل مراءاة الناس، أو إظهار الشجاعة، أو الحمية للعشيرة أو الأرض أو نحو ذلك.

وإن المرء قد يلبس لبوس المجاهدين، ويقاتل في صفوفهم، حتى يقتل على أيدي الكفار ثم لا يعد عند الله شهيدا، وما ذلك إلا لأن نيته لم تتجرد لإعلاء كلمة الله، وداخلتها مقاصد وبواعث أخرى.

وقد جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري: أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". ومفهوم هذا: أن كل قتال آخر ليس في سبيل الله.

## صعوبة تحقيق الإخلاص

ولا تحسبن يا أخي المسلم أن التحقق بالإخلاص أمر يسير، وأنه في متناول اليد لكل من أراد، وأن تحصيله ممكن بأدنى جهد وبلا معاناة ولا مجاهدة، فهذا بعيد عن الحقيقة.

والواقع أن تحقيق الإخلاص ليس بالأمر الهين، كما يظن بعض الذين يتعاملون مع السطوح لا مع الأعماق، ومع القشور لا مع اللباب.

فقد أكد العارفون من سالكي الطريق إلى الله تعالى: صعوبة الإخلاص، ومشقته على أنفس الخلق، إلا على مـن يسره الله تعالى عليه.

وذلك لأن الإخلاص ـ كما قلنا ـ يتضمن أمـرين: استحضار النية، وتحريرها من الشوائب.

أما استحضار النية في العمل، فهو مهم، ولا يكفي أن يؤدي الإنسان العمل "أتوماتيكيا" دون أن تحضره النية وتلونه وتوجهه، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات". ويقول: "إنما يبعث الناس على نياتهم".

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد منقطع عـن عمـر: لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسبة له، يعني: من لم يعمل العمل احتسابا لله.

وروى عن ابن مسعود أنه قال: لا ينفع قول إلا بعمل، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية.

وقال يحيى بن أبي كثير: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل.

وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئا أشد على من نيتي، لأنها تنقلب علي.

وقال زبيد اليامي: إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء، حتى في الطعام والشراب.

وقال أيضا: انو في كل شيء تريده الخير، حتى خروجك إلى الكناسة.

وقال داود الطائي: رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك به وإن لم تنصب.

وقال مطرف بن عبدالله: صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية.

وقال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.

وقال: إيثار الله عز وجل أفضل من القتل في سبيله.

وقيل لنافع بن جبير: ألا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت حتى أنوي، ففكر هنيهة، ثم قال: امض.

وقال عبدالله بن المبارك: رب عمل صغير تعظمـه النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

وقال الفضيل بن عياض: إنما يريد الله منـك نيتـك وإرادتك.

وقال بعض السلف: من سره أن يكمـل لـه عملـه فليحسن نيته، فإن الله عز وجل يأجر العبد إذا حسنت نيتـه، حتى باللقمة.

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النيـة للعمـل، كمـا تتعلمون العمل.

وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمـل، ومادمت تنوي الخير فأنت بخير.

وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى، فإني لا أحـب أن يأتي علي ساعة من ليل أو نهار، إلا وأنا عامل من عمال الله. فقيل له: قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما اسـتطعت، فإذا فترت - أو تركته - فهم بعمله (أي انوه) فـإن الهـام بعمل الخير كعامله.

وأما تجريد النفس من أهوائها الظـاهرة والخفيـة، وتصفية النية من الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية، فمـا أشقه على النفس وما أقساه! فإنه انتصار على الأنانية وحب الذات، وحب الدنيا، وفناء النفس عن حظوظها وأغراضـها العاجلة، وإنه - لو تعلمون - عظيم!

ولهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة للنفس، ومراقبة دائمة لمداخل الشيطان إليها، وتنقية لها من عوامل الدغل والرياء، وحب الجاه والظهور، وحب المنافع الشخصية، وهي عوامل غلابة ذات سلطة وتأثير على النفس البشرية، ولهذا سئل أحد

الربانيين، وهو سهل بن عبدالله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال غيره: تخليص النيات أشد على العاملين من جميع الأعمال.

وقال يوسف بن الحسين الرازي: أعز شيء في الدنيا والإخلاص، وكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر.

بل بالغ بعضهم فقال: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى!!

وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز!

وذلك لغلبة حظوظ النفس على العاملين، وصعوبة التجرد من أهوائها، ولهذا اشترط القرآن خلوص المنافق من نفاقه، وانضمامه إلى قافلة المؤمنين: أن يخلص دينه لله، قال تعالى: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم

نصيرا، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصـوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين)، فلم يكتـف مـنهم بالتوبـة، والإصلاح والاعتصام بالله، حتى يخلصوا دينهم لله.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل عملـي كله صالحا، واجعله لوجهك خالصا، ولا تجعل لأحـد فيـه شيئا.

وكان من دعاء مطرف بـن عبـدالله: اللهـم إنـي استغفرك مما تبت إليك منه، ثم عدت فيه. واسـتغفرك ممـا جعلته لك على نفسي، ثم لم أف لك بـه. واسـتغفرك ممـا زعمت أني أردت به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت!

وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه تعالى بك، وفعل منك له، والمطلوب منـك في فعله: الرضا بما فعل، وفي فعلك: الإخلاص فيما تعمل، فإذا أنت قد سعدت بهذين، وسعدت في الدارين.

ومن الناس من تراه فتظنه يعمل للإسـلام بحـرارة وصدق، بل ربما ظن هو نفسه كذلك، فإذا فتشت عن قلبـه

وسبرت حقيقة نواياه، وجدته طالب دنيا في ثـوب صـاحب دين، يعمل لنفسه، وهو يوهم غيره ـ وربما يوهم نفسـه ـ أنه يعمل لربه!

إن الله لا يقبل القلب المـدخول، ولا يقبـل العمـل المدخول، إنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه.

## أهمية الإخلاص للدعاة والعلماء

ومن هنا كان على كل من يدعو الإسـلام، ويعمـل لنصرته أن يحلل بواعثه ونواياه بصـدق ولا يكـذب علـى نفسه، ولا على ربه، فقد قال الإمام الغزالي بحق بعد أن ذكر فتنة حب الجاه والظهور والشهرة والمحمدة عند الناس:

"وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاسـتتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلـبس علـيهم ذلـك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشـرع الـذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترى الواعظ يمـن على الله تعالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفـرح

بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفـرح بمـا يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه سـاءه ذلـك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعـالى، إذ كفـاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجـوه النـاس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنـت المثـاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يـدري المسـكين أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا، وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحـر عميـق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى: (إلا عبادك منهم المخلصين). وسننقل كلامه كله فيما بعد.

# الفصل الثالث

# فضل الإخلاص وخطر الرياء

## فضل النية والإخلاص

لا غرو ـ إذا كان هذا شأن النية وأهمية الإخـلاص ـ أن تتكاثر النصوص من القرآن والسنة في بيان فضـلهما ومنزلتهما في الدين.

وقد أمر الله في كتابه بالإخلاص، وحث عليـه فـي أكثر من سورة، وخصوصا في القرآن المكي، لأنـه يتعلـق بتجريد التوحيد، وتصحيح العقيدة، واستقامة الوجهة، فقـال تعالى لرسوله: (إنا أنزلنا إليك الكتـاب بـالحق فاعبـد الله مخلصا له الدين، ألا لله الدين الخالص).

وقال له: (قل الله أعبد مخلصا له ديني، فاعبدوا مـا شئتم من دونه).

وقال له: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شـريك لـه، وبـذلك أمـرت وأنـا أول المسلمين).

وقال سبحانه: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء).

وقال سبحانه: (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهـه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا).

وقال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد).

وقد بينا أن القرآن يذكر النية والإخـلاص بصـيغ مختلفة، مثل: إرادة الآخرة، وإرادة وجه الله تعالى، أو ابتغاء وجهه وابتغاء مرضاته، وذكرنا من آيات كتاب الله ما يـدل عليه.

وأحيانا يعبر عن ذلـك بقولـه: (فـي سـبيل الله) وخصوصا مع الإنفاق والجهاد والقتال. وقد صح الحديث أن

القتال لا يكون في سبيل الله، إلا إذا كان هدفه وغايتـه: أن تكون كلمة الله هي العليا، ومثل ذلك يقال في الإنفاق والجهاد بكل صوره، فلا يكون ذلك في سـبيل الله مـا لـم يتحـرر المقصود به، وهو إعلاء كلمة الله.

وقد بين القرآن الفرق بين غاية المـؤمنين وغايـة الكافرين في قتالهم، فقال: (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت)، فالأولون يقاتلون لإعلاء كلمة الله، وهي كلمة التوحيد والحق والعدل والخير، التي تتمثل في دينه وشرعه، والآخرون يقاتلون، لإعلاء كلمة الطاغوت، وهو كل ما يعبد أو يعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله، وهي كلمة الشرك والباطل والظلم والشر والطغيان.

وكم أشاد القرآن بالمخلصين الذين لم يريدوا بأعمالهم إلا وجه الله تعالى، يبتغون مرضـاته، ولا يركضـون وراء رضا الناس وثنائهم.

من هؤلاء: الأبرار الذين يطعمون الطعام لوجه الله، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورا، وهم الـذين قـال الله فيهم: (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجهـا كـافورا،

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا).

ومن هؤلاء: المنفقون أموالهم في سبيل الله: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير).

ومنهم: الذين أمر الله خاتم رسله، وصفوة خلقه، أن يصبر معهم، ولا تعدو عيناه إلى غيرهم من أصحاب البريق الذي يخطف الأضواء، فقال تعالى: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا).

ومنهم: أولو الألباب، الأوفياء بعهد الله، الذين صبروا على طول الطريق، وعلى أذى قطاعه، وكان صبرهم ابتغاء وجه الله، لا طلبا للثناء، ولا مخافة من ذمهم،

ولا جريا وراء دنيا، ولهذا مدحهم الله بقوله: (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار).

ليس المهم أن تعمل العمل، إنما المهم أن تبتغي به وجه الله سبحانه، وبذلك تضمن قبوله عند الله، والمثوبة عليه في الآخرة. يقول تعالى: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما).

ومن الأحاديث التي تذكر هنا: ما جاء في الترغيب في الحب لله، والبغض لله، والعطاء لله، والمنع لله، فذلك كله بعض مظاهر الإخلاص ومعانيه.

فعن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان".

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه

مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكـره أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف فـي النار".

وعن ابن مسعود وابن عباس والبراء مرفوعا: "أوثق عرا الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب فـي الله، والبغض في الله".

وفي الحديث القدسي عن عبادة بن الصامت: "قال الله تعالى: حقت محبتي للمتحابين في، وحقت محبتي للمتواصلين في، وحقت محبتـي للمتناصـحين فـي، وحقـت محبتـي للمتزاورين في، وحقت محبتي للمتباذلين في، المتحابون في على منابر من نور يغبطهم بمكـانهم النبيـون والصـديقون والشهداء".

ومن ذلك: الأحاديث التي تنوه بالمغمورين الـذين لا يتبوؤن المراكز الاجتماعية المرموقة، ولا يتمتعون بصـيت ولا شهرة.

كما في حديث أبي هريرة في صحيح مسـلم: "رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره" وفي روايـة الحاكم: "رب أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره".

وحديث سهل بن سعد عند البخاري، قال: "مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: "ما رأيك في هذا"؟ قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح (أي يزوج)، وإن شفع أن يشفع! فسـكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"ما رأيك في هذا"؟ قال: يا رسـول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا أحرى إن خطب ألا ينكح، وإن شفع إلا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير من ملء الأرض مثل هذا".

وحديث ثوبان: أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قـال: "إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطـه إيـاه، ولو سأله درهما لم يعطه إياه، ولو سأله فلسا لم يعطه إيـاه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها".

ومن الآثار في ذلك: ما كتب به عمر بن الخطاب إلى أبي موسى يقول: من خلصت نيته لله، كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس.

وكان مطرف يقول: من صفا صفى له، ومن خلط خلط عليه.

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه، ويقول: يا نفس أخلصي تتخلصي!

وكتب بعض الصالحين إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك منها القليل.

وقال الجنيد: إن لله عبادا عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

## التحذير من الرياء

وكما حفلت نصوص الكتاب والسنة بالترغيب في النية والإخلاص والصدق، حفلت كذلك بالترهيب والتحذير

من آفة الرياء، وابتغاء وجه الناس ـ لا وجه الله ـ بعمـل الآخرة.

كما حذرت ورهبت من أمر آخر، هو: حب الجـاه والشهرة والمنزلة ورهبت من أمر آخر، هو: حـب الجـاه والشهرة والمنزلة في قلوب الخلق.

## القرآن يحذر من الرياء والمرائين

إن الرياء من معاصي القلوب الشديدة الخطر علـى النفس وعلى العمل، وهو من الكبائر الموبقة، ولهـذا اشـتد الوعيد عليه في القرآن والحديث.

لقد جعله القرآن من أوصاف الكفرة الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أو المنافقين الذين يقولون: آمنا بـالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. آمنوا بأفواههم ولـم تـؤمن قلوبهم.

يقول تعالى: (كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصـابه

وابل فتركه صلدا، لا يقدرون على شيء مما كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين).

وقال في سورة أخرى: (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا).

فهذا رياء الكفار الذين لا يؤمنون بالمبدأ ولا بالمعاد، فلا يتصور منهم أن يعملوا لله ولا للدار الآخرة.

وإذا كانت نفقتهم رياء، فإن خروجهم للقتال والغـزو رياء كذلك، لا نصيب فيه لله، كما قال تعالى: (ولا تكونـوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عـن سبيل الله).

وأما المنافقون فقد قال تعالى في شأنهم: (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلـى الصـلاة قـاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا).

وقال تعالى: (فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون، ويمنعون الماعون) فتوعدهم الله تعالى بالويل، وهو الهلاك والعذاب.

## الأحاديث النبوية ترهب من خطر الرياء

وأما الحديث فكثير، أكتفي منه بما انتقيه من كتاب "الترغيب والترهيب" للحافظ المنذري.

فقد ذكر في "الترهيب من الرياء" جملة من الأحاديث، انتقيت منها عشرة، بدأها بالحديث الخطير، الذي رواه مسلم وغيره، ونصه في صحيح مسلم:

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: هو جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كـذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قـارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النـار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتى بـه، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما علمت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قـال: كـذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر بـه فسـحب على وجهه حتى ألقي في النار" (رواه مسلم والنسائي، ورواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في صحيحه، وكلاهمـا بلفـظ واحد).

أقول: وفيه أن معاوية لما بلغه هذا الحـديث، بكـى حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله. قال الله تعالى: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخـرة إلا النار).

وقد يسأل بعض الناس: لماذا هذا العـذاب والوعيـد الذي يتطاير شرره، وقد فعل الخير؟ والجواب: أن الإسـلام

يهتم بالباعث على العمل أكثر من العمل نفسه، وقد علم بالفطرة أن التزوير من الإنسان على إنسان مثله من شر الرذائل، وأبشع الجرائم، فإذا كان التزوير من المخلوق على خالقه، فالجريمة أبشع وأشنع، وهذا هو عمل المرائي، يعمل لوجه الناس، وهو يريهم أنه يريد الله، كذبا وزورا، فلا غرو أن يفضحه الله يوم تبلى السرائر، وأن يسحب على وجهه إلى النار! ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزئ بي؟!

وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب" (رواه أحمد وابن حبان في صحيحه، والحاكم، والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد).

وفي رواية للبيهقي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بشر هذه الأمة بالتيسير، والسناء، والرفعة بالدين، والتمكين في البلاد، والنصر، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب".

وعن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من سمع سمع الله به، ومن يراء يراء الله به" (رواه البخاري ومسلم).

"سمع" ـ بتشديد الميم ـ ومعناه: من أظهـر عملـه للناس رياء أظهر الله ينته الفاسدة في عملـه يـوم القيامـة، وفضحه على رؤوس الأشهاد.

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال: "ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة وريـاء إلا سمع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة" (رواه الطبراني بإسناد حسن).

وعن محمود بن لبيد قال: خرج النبي عليه الصـلاة والسلام فقال: "يا أيها الناس، إياكم وشرك السرائر" قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: "يقوم الرجـل فيصـلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليـه، فـذلك شرك السرائر" (رواه ابن خزيمة في صحيحه).

وعن زيد بن أسلم عن أبيه، أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذا عند قبر رسـول الله ـ عليـه الصلاة والسلام ـ يبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: "اليسر مـن الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربـة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الـذين إن غـابوا لـم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصـابيح الهـدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة" (رواه ابن ماجـه والحـاكم والبيهقي في كتاب الزهد له وغيره، وقال الحاكم: صحيح ولا علة له).

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله عليـه الصـلاة والسلام قال: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشـرك الأصـغر" قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء: يقـول الله ـ عز وجل ـ إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبـوا إلـى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا: هل تجـدون عنـدهم جزاء"؟! (رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقـي في الزهد وغيره).

وعن أبي هريرة أن رسـول الله ـ عليـه الصـلاة والسلام ـ قال: "قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عـن الشرك، فمن عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك" (رواه ابن ماجه واللفظ له، وابن خزيمـة في صحيحه، والبيهقي، ورواه ابن ماجه ثقات).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة، فتنصب بين يدي الله تعالى، فيقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه، واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك وجلالك مـا رأينـا إلا خيرا، فيقول الله عز وجل، إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل إلا ما ابتغي بـه وجهـي" (رواه البـزار والطبرانـي بإسنادين، رواة أحدهما رواة الصحيح، والبيهقي).

وعن أبي علي ـ رجل من بني كاهل ـ قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشـرك، فإنه أخفى من دبيب النمل، فقام إليه عبدالله بن حزن وقـيس بن المضارب، فقالا: والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمـر مأذونا لنا أو غير مأذون، فقال: بل أخرج مما قلت، خطبنـا

رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقـال: "يـا أيهـا الناس، اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل" فقال لـه من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: "قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونسـتغفرك لمـا لا نعلمـه" (رواه أحمـد والطبراني، ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصـحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان، ولم أر أحد جرحـه. ورواه أبـو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنه قال فيه: "يقول كل يـوم ثلاث مرات").

وكما حذرت الأحاديث النبوية من آفة الرياء، حذرت من آفة أخرى هي: حب الجاه والشهرة، والحرص على علو المكانة عند المخلوقين.

وقد جاء في بعض الآثار: "حب المال والجاه ينبتـان النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل".

وربما كان حب الجاه والمنزلة عند بعض الناس أهم بكثير من حب المال، فقد يبذل المال طيب النفس، ليحصـل

على الجاه والشهرة، وقد ذكر الإمام الغزالي إلـى أن الجـاه أهم من المال لأوجه ثلاثة ذكرها.

وقد جاء مرفوعا من حديث كعب بن مالك: "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه".

والمراد بالشرف في الحديث: المكانة والجـاه عنـد الخلق.

وكل ما مضى من النصوص من كتـاب الله تعـالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، في التحذير من الريـاء، وحب المال والجاه والشهرة، يدلنا بكل جلاء علـى خطـر معاصي القلوب، وآفاتها وآثارها المـدمرة للأعمـال التـي ظاهرها الصلاح، ولهذا كانت طاعات القلوب مقدمـة علـى طاعات الجوراح، والإخلاص في مقدمة هذه الطاعات، لأنه شرط قبولها كلها، فما حقيقة هذا الإخلاص؟؟

هذا ما نبينه في الفصل التالي.

# الفصل الرابع

# حقيقة الإخلاص

## تمهيد

اختلفت عبارات أهل السلوك ـ على عادتهم ـ في تحديد ماهية الإخلاص، فكل منهم نظر إلى جانب، أو لفت إلى معنى من معانيه، أو أكد ما ذكره الآخر، وإن كانت العبارة مغايرة.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في "رسالته":

الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو: أنه يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر، من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين.

ويصح أن يقال: الإخلاص: التوقي عـن ملاحظـة الأشخاص.

وقال شيخ القوم الجنيد: الإخلاص: سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسـده، ولا هـوى فيميله.

وقد ورد في ذلك حديث قدسي ذكره القشيري بسنده عن رب العزة قال: "الإخلاص سر من سرى، استودعه قلب من أحببت من عبادي".

وقال أبو عثمان: الإخلاص: نسيان رؤيـة الخلـق بدوام النظر إلى فضل الخالق.

وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص: أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وسئل بعضهم عن الإخلاص، فقال: ألا تشهد علـى عملك غير الله عز وجل.

وقال ذو النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمـال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال سهل بن عبدالله: لا يعرف الرياء إلا مخلص.

## عناصر مهمة في تكوين الإخلاص

وهذه الأقوال تشير إلى عناصر مهمة تتكـون منهـا حقيقة الإخلاص، من هذه العناصر:

أ. أن يهتم المخلص بنظر الخالق لا بنظر المخلوقين، فإنهم لم يغنوا عنه من الله شيئا، وقد قال الفضيل بن عياض: العمل من أجل الناس شرك، وترك العمل من أجـل النـاس رياء، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

ب. أن يستوي ظاهر المخلص وباطنـه، وعلانيتـه وسريرته، فلا يكون ظاهره عامرا وباطنه خرابا، ولا تكون علانيته عسلا، وسريرته علقما، وقد قال سرى السقطي: من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى.

ج. أن يستوي عنده مدح الناس وذمهم، وقد قيل: ما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله، والعكس أيضا صحيح.

د. ألا ينظر إلى إخلاصه، فيعجب بنفسه، فيهلكه عجبه، ولذا أكد العارفون عدم رؤية الأعمال، حتى قال أبو يعقوب السوسي: متى شهدوا في إخلاصهم الخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص!

وقال أبو بكر الدقاق: نقصان كل مخلص في رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله تعالى أن يخلص إخلاصه، أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلصا لا مخلصا.

وقال أبو عثمان المغربي: الإخلاص ما يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وأما إخلاص الخواص، فهو ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها ولا بها اعتداد، فذلك إخلاص الخواص.

ومعنى هذا: أنهم فنوا عن أنفسهم وعن أعمالهم، وعن إخلاصهم، فلم يروا إلا الله تعالى الذي أخلصهم لدينه، فأخلصوا له الدين.

هـ. ومن عناصر الإخلاص: نسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة، لأن المخلص لا يأمن أن يكون عمله مشوبا بحظ للنفس قد يخفى عليه، فلا يحظى عمل بالقبول عند الله تعالى، فقد قال تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين).

والأعمال وإن عظمت فإنها لا تكافئ أدنى نعمة من نعم الله تعالى على عبده، على أن التوفيق للعمل إنما هو من الله تعالى، فهو صاحب الفضل أولا وآخرا، فلا يقتضي العمل في ذاته ثوابا في نظر المخلص، بل يرى الثواب إحسانا من الله إليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لن يدخل أحدكم الجنة عمله"، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته" (متفق عليه عن أبي هريرة).

و. الخوف من تسرب الرياء والهوى إلى النفس، وهو لا يشعر، فإن للشيطان سراديب خفية وملتوية، يدخل

بها إلى النفس، وقد يئس من إيقاع المؤمن فـي المعاصـي الظاهرة، فعمله الدائم معه في المعاصـي الباطنـة، وبهـا يستطيع أن يضيع عليه عباداته وأعماله التي يرجو بهـا الله والدار الآخرة.

ولهذا قال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص، لأنه ـ لخوفه منه ـ يرقبه ويتتبعه، ويعرف أغواره ومداخلـه، ولا يكذب على نفسه، ويزين لها سوء عمله فتراه حسنا.

ومن أجل هذا صعب الإخلاص، وقل المخلصـون، وفيه قال سهل أيضا: أهـل "لا إلـه إلا الله" كثيـر، ولكـن المخلصين منهم قليل!

هذه العناصر التي ذكرناها هي مقومات الإخـلاص الكامل، والسعيد من توافرت له كلها وقليل ما هم، وعلى قدر حظ المسلم منها يكون حظه من الإخلاص.

## تحقيق الغزالي في بيان الإخلاص

وللإمام الغزالي بحث عميق في "إحيائه" فـي بيـان حقيقة الإخلاص، وهو فارس الميدان في هذا المجال، علمـا وعملا، وهو الذي رأى عمله في التصنيف والتـدريس فـي علوم الفقه والأصول والكلام والرد على الفلاسفة والباطنيـة وغيرها – مما بوأه مقعد الشـهرة والإمامـة فـي العـالم الإسلامي كله يومئذ – رأى ذلك كله عملا من أعمال الدنيا، وشهوات النفس، وطلب المنزلة والجاه في قلـوب الخلـق، فاعتزل ذلك كله، ليطلب الخلاص من الإخلاص.

ولهذا كان كلامه هنا كلام خبيـر بـأهواء الـنفس البشرية ومنعطفاتها وتمويهاتهـا، وبتلبـيس إبلـيس علـى الإنسان، حتى يحسب أنه يعمل لله، وهو إنما يعمل لذاته.

يقول الغزالي:

"اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصـفى المخلص إخلاصا، قال الله تعالى: (من بين فـرث ودم لبنـا خالصا سائغا للشاربين)، فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيـه شوب من دم والفرث، ومن كل ما يمكـن أن يمتـزج بـه،

والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات.

"وقد ذكرنا حقيقة النية، وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصا، بالإضافة إلى المنوى، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل، ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه، إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات.

"وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصده التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء أو من غيره

من حظوظ النفس، ومثال ذلك أن يصـوم لينتفـع بالحميـة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبده ليـتخاص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخاص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عـدو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو بشغل هو فيه، فـأراد أن يستريح منه أياما، أو يغزو ليمـارس الحـرب ويـتعلم أسبابه، ويقدر به على تهيئة العسـاكر وجرهـا، أو يصـلي بالليل وله غرض في دفع التعاس عن نفسه به ليراقب أهله، أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزا بين العشيرة، أو ليكـون عقـاره أو مالـه محروسا بعز العلم عن الأطماع، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخاص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث، أو تكفـل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس، أو لينال به رفقا في الدنيا، أو كتب مصـحفا ليجـود بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشيا ليخفف عن نفسـه الكراء، أو توضأ ليتنظف، أو يتبـرد، أو اغتسـل لتطيـب رائحته، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن، أو صام ليخفـف عـن نفسـه

التردد في طبخ الطعام، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكـل عنها، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عـن نفسه، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر بـه وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كـان باعثـه هـو التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خطرة مـن هـذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه، بسبب هذه الأمـور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عـن أن يكـون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك، وقد قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشركة.

"وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تسـتريح إليـه النفس، ويميل إليه القلب، قل أم كثر إذا تطرق إلـى العمـل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مـرتبط فـي حظوظه، منغمس في شهواته، قلما ينفك فعل مـن أفعالـه، وعبادة من عباداته، عن حظوظ وأغراض عاجلة من هـذه الأجناس، فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظـة واحـدة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقيـة القلب من هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه

إلا طلب القرب من الله تعالى، وهذه الحظوظ إن كانت هـي الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب، إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة كما سـبق فـي النية.

"وبالجملة فأما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعـث الديني، أو أقوى منه، أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر كمـا سنذكره، وإنما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشـوائب كلها، قليلها وكثيرها، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مسـتهتر بالله، مستغرق الهم بالآخرة، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا، بل تكون رغبتـه فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلـة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقويه على عبـادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفى شر الجوع، حتى لا يحتـاج إلـى الأكل، فلا يبقى في قلبه حظ من الفضـول الزائـدة علـى الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده، لأنه ضرورة

دينه، فلا يكون له هم إلا الله تعالى، فمثل هذا الشخص لـو أكل أو شرب، أو قضى حاجته، كان خالص العمل صـحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة، وكان لـه درجـة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا، فالذي يغلب على نفسه الـدنيا والعلـو والرياسـة وبالجملة غير الله، فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا.

"فإذن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس، وقطـع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلـك علـى القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص، وكم مـن أعمـال يتعـب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجـه الله، ويكـون فيهـا مغرورا، لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكى عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسـجد في الصف الأول، لأني تأخرت يوما لعـذر فصـليت فـي الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني فـي

الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصـف الأول كان مسرتي، وسبب استراحة قلبي، من حيث لا أشعر! وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلهـا في الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى: (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سـيئات مـا كسـبوا)، وبقوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صـنعا). وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح والاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك، ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسـول الله صلى الله عليه وسلم، وترى الواعظ يمن علـى الله تعـالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصـرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هـو أحسـن منـه وعظـا، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هـذا المهـم

بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقـول: إنمـا غمـك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنـك إلـى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثـاب، واغتمامـك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحـق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا، وأعود عليه في الآخـرة من انفراده.

"فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحـر عميـق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثنى في قوله تعالى: (إلا عبادك منهم المخلصين)، فلـيكن العبـد شديد التفقد والمراقبة لهـذه الـدقائق، وإلا التحـق باتبـاع الشياطين وهو لا يشعر".

## كلام الغزالي في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

ومما بحثـه الغزالـي وحققـه فـي كتـاب "النيـة والإخلاص" من "الإحياء": بيان حكم العمل الذي امتزجت به بعض الشوائب الدنيوية، أو الحظوظ النفسية، ولم يخلص كله

لله، ولم يكن كله للرياء، وهل يستحق المسلم به بعض الثواب أو لا؟

وكلامه هنا جيد ينبغي أن ينقل أيضا، ففيه نجد عقل الفقيه، وقلب الصوفي معا.

يقول رضي الله عنه:

"اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعـالى، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلـف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا، أم يقتضي عقابـا، أم لا يقتضي شيئا أصلا، فلا يكون له ولا عليه؟

وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا، وهو سبب المقت والعقاب.

وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب.

وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل علـى أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه.

والذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث.

فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه.

وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب.

وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر - فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)، ولقوله تعالى: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها). فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت الزيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

وكشف الغطاء عن هذا: أن الأعمال تأثيرهـا فـي القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكـات، وإنمـا غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه، وداعية الخير مـن المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقهـا، فـإذا اجتمعـت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمـل علـى وفـق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة، وإذا كان العمـل علـى وفق مقتضى التقرب، فقد قوى أيضا تلك الصفة، وأحـدهما مهلك، والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما، فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضـره، ثـم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته، فيكون بعد تناولهمـا كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عـن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية، ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكـذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر، ولا ينفك عن تأثير فـي إنارة القلب أو تسويده، وفي تقريبه من الله، أو إبعاده، فـإذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده، فقد عاد إلى ما كان، فلـم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين، والآخر يبعده شبرا واحدا، فضل له لا محالة شبر، وقد قـال النبـي

صلى الله عليه وسلم: "اتبع السيئة الحسنة تمحها"، فإذا كـان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقبيه، فإذا اجتمعا جميعا فلابد وأن يتدافعا بالضرورة.

"ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خـرج حاجـا ومعه تجارة، صح حجه، وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، نعم يمكن أن يقال: إنما يثاب علـى أعمـال الحج عند انتهائه إلى مكة، وتجارته غير موقوفة عليه، فهـو خالص، وإنما المشترك طول المسافة، ولا ثواب فيه مهمـا قصد التجارة، ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هـو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب، وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقـة يحبط بالكلية ثواب جهادهم. بل العـدل أن يقـال: إذا كـان الباعث الأصلي، والمزعج القوي، هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية، فلا يحـبط بـه الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبـه إلـى الغنيمة أصلا، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمـة، والتجـارة، وسائر الحظوظ، فقد روى طاوس وغيره من التـابعين، أن رجلا سأل النبي صـلى الله عليـه وسـلم عمـن يصـطنع المعروف، أو قال: يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر، فلم يـدر ما يقول له، حتى نزلت: (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمـل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)، وقد قصد الأجـر والحمد جميعا، وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال: "أدنى الرياء شرك"، وقال أبو هريرة: قـال النبـي صلى الله عليه وسلم: "يقال لمن أشرك في عمله: خذ أجـرك ممن عملت له".

"وروى عن عبادة، أن الله عز وجل يقول: "أنا أغنى الأغنياء عن الشركة، من عمل لي عملا فأشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي". وروى أبو موسى أن أعرابيا أتـى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: الرجـل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتـل ليـرى مكانه: من في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". وقال عمر بـن

الخطاب رضي الله عنه: تقولون فلان شهيد، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا (أي دراهم). وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له".

"فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد بها: من لم يرد بذلك إلا الدنيا، كقوله: "من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا" وكان ذلك هو الأغلب على همه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان، لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام، لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما، ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب.

ثم إن الإنسان عند الشركة أبدا في خطر، فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالا، ولذلك قال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا). أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط.

ويجوز أن يقال أيضا: منصب الشـهادة لا ينـال إلا بالإخلاص في الغزو، وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرد الغزو، وإن لم يكن غنيمة، وقـدر على غزو طائفتين من الكفار، إحـداهما غنيـة، والأخـرى فقيرة، فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله والغنيمـة، لا ثواب له على غزوه البتة. ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك، فإن هذا حرج في الدين، ومدخل لليأس على المسـلمين، لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور، فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكـون في إحباطه فلا.

نعم.. الإنسان فيه على خطر عظيم، لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفـاء، فـلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبـد من نفسه، وإن بالغ في الاحتياط.

فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول، خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها

أكثر من ثوابها، وهكذا كان الخائفون مـن ذوي البصـائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة، ولذلك قـال سـفيان رحمه الله: لا أعتد بما ظهر من عملي. وقال عبد العزيز بن أبي رواد: جاورت هذا البيت ستين سنة، وحججـت سـتين حجة، فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي.

ومع هذا لا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفـة والرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصـود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقـد ضـيع العمـل والإخلاص جميعا.

وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخـدم أبـا سـعيد الخراز ويخف في أعماله، فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذر عليه قضاء الحوائج، واستضـر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقـة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقـال

أبو سعيد: لا تفعل، إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة، فواظـب على العمل، واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلـت لـك: اترك العمل، وإنما قلت لك: أخلص العمل، وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك".

## كلام ابن رجب حول العمل المشوب

وللعلامة ابن رجب الحنبلي في شرح الحديث: "إنما الأعمال بالنيات" كلام جيد حول العمل المشوب، وإن خـالف في بعضه الإمام الغزالي، يحسن بنا أن نذكره هنـا، تتميمـا للفائدة، قال رضي الله عنه:

"واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون ريـاء محضا، بحيث لا يراد به سوى مرآة المخلـوقين لغـرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عز وجـل: (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسـالى يـراءون النـاس ولا يذكرون الله إلا قليلا).

وقال تعالى: (فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون).. الآية.

وكذلك وصف الله الكفار بالريـاء فـي قولـه: (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديـارهم بطـرا ورئـاء النـاس ويصدون عن سبيل الله).

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مـؤمن فـي فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبـة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسـلم أنـه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شـاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطـه أيضا.

وذكر ابن رجب هنا جملة من الأحاديث، مرت بنـا قبل هذا، فلا داعي لإعادتها. ويكفي منها ما خرج النسـائي بإسناد جيد عن أبي أمامة الباهلي أن رجلا جاء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيت رجـلا غزا يلتمس الأجر والذكر؟ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم: "لا شيء له" فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "لا شيء له" ثم قال: "إن الله لا يقبـل من العمل إلا ما كان له خالصا، وابتغى به وجهه".

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس: قال رجل: يـا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شـيئا حتى نزلت: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صـالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

وممن روى عنه هذا المعنى، وأن العمل إذا خالطـه شيء من الرياء كان باطلا: طائفة من السلف، منهم عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسـعيد بـن المسـيب، وغيرهم.

وفي مراسيل القاسم بن مخيمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لا يقبل الله عملا فيه مثقال حبة خردل من رياء".

ولا نعرف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيـه خلاف عن بعض المتأخرين (لعله يقصد الغزالي).

فإن خالط نية الجهاد مثلا نية غير الرياء، مثل أخـذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة، أو التجارة، نقـص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية. وفي "صـحيح مسـلم" عن عبدالله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: "إن الغزاة إذا غنموا غنيمة، تعجلوا ثلثي أجرهم، فـإن لـم يغنموا شيئا، تم لهم أجرهم".

وقد ذكرنا فيما مضى أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضا من الدنيا أنه لا أجر له، وهي محمولة علـى أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا.

وقال الإمام أحمد: التـاجر والمسـتأجر والمكـارى أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزاتهم، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضا فيمن يأخذ جعلا علـى الجهـاد: إذا لـم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس أن يأخذ، كأنه خـرج لدينـه، فإن أعطى شيئا، أخذه.

وكذا روى عن عبدالله بن عمرو، قـال: إذا أجمـع أحدكم على الغزو، فعوضه الله رزقا، فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم إن أعطى درهما غزا، وإن منع درهما مكث، فلا خير في ذلك.

وكذا قال الأوزاعي: إذا كانت نيـة الغـازي علـى الغزو، فلا أرى بأسا.

وهكذا يقال فيمن أخذ شيئا في الحج ليحج به: إما عن نفسه، أو عن غيره، وقد روى عن مجاهد أنه قال في حـج الجمال، وحج الأجير، وحج التاجر: هو تمام لا ينقص مـن أجورهم شيء، وهو محمول على أن قصدهم الأصلي كـان هو الحج دون التكسب.

وأما إن كان الأصل العمل لله، ثم طرأت عليه نيـة الرياء، فإن كان خاطرا ودفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قـد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري، ورجحا أن عملـه لا

يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره.

ويستدل لهذا القول بما خرجه أبو داود في "مراسيله" عن عطاء الخراساني أن رجلا قال: يا رسول الله، إن بني سلمة كلهم يقاتل، فمنهم من يقاتل الدنيا، ومنهم من يقاتل نجدة، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، فأيهم الشهيد؟ قال: "كلهم" إذ كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا.

وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال، ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية.

وكذلك روى عن سليمان بن داود الهاشمي أنه قال: ربما أحدث بحديث ولي نية، فإذا أتيت على بعضه، تغيرت نيتي، فإذن الحديث الواحد يحتاج إلى نيات.

ولا يرد على هذا الجهاد، كما فـي مرسـل عطـاء الخراساني، فإن الجهاد يلزم بحضور الصـف، ولا يجـوز تركه حينئذ، فيصير كالحج.

فأما إذا عمل العمل لله خالصا، ثم ألقى الله له الثنـاء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمتـه، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك".

وكان ذلك من عاجل ثوابه في حياتـه الـدنيا، كمـا سيأتي في الحديث.

# الفصل الخامس
# من دلائل الإخلاص

للإخلاص دلائل وعلامات كثيرة تظهر في حياة المخلص وسلوكه، ونظرته إلى نفسه وإلى الناس منها:

## الخوف من الشهرة

١. أن يخاف من الشهرة وانتشار الصيت على نفسه ودينه، وخصوصا إذا كان من أصحاب المواهب، وأن يوقن بأن القبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر، وأن إنسانا لو طبقت شهرته الآفاق، وهو مدخول النية، لم يغن عنه الناس من الله شيئا.

ولهذا كان الزهد في الجاه والظهور والشهرة والأضواء أعظم من الزهد في المال، وفي شهوة البطن والفرج، يقول الإمام ابن شهاب الزهري: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى إليها وعادى.

وهذا ما جعل كثيرا من علماء السلف وصالحيهم يخافون على قلوبهم من فتنة الشهرة، وسحر الجاه والصيت، ويحذرون من ذلك تلاميذهم، وقد روى المصنفون في السلوك في ذلك أشياء كثيرة، مثل أبي القاسم القشيري في "الرسالة"، وأبي طالب المكي في "قوت القلوب"، والغزالي في "الإحياء".

من ذلك ما قاله الزاهد الشهير إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة

وقال: ما قرت عيني يوما في الدنيا قط، إلا مرة واحدة: بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام، وكان بي البطن، فجاء المؤذن، وجرني برجلي حتى أخرجني من المسجد.

وإنما قرت عينه، لأن الرجل لم يعرفه، ولذا عامله بعنف وجره من رجله كأنه مجرم.

وهو الذي ترك الإمارة والثروة لله تعالى، وإنما لم يخرج هو، لأنه كان عليلا أقعده المرض.

وقال الزاهد المعروف بشر الحافي: ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح.

وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجـل يحـب أن يعرفه الناس.

وصحب رجل ابن محيريز في سفر، فلما فارقه قال: أوصني. فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف، وتمشـي ولا يمشى إليك، وتسأل ولا تسأل، فافعل.

وقال أيوب السختياني: ما صدق الله عبد، إلا سـره ألا يشعر بمكانه.

وكان خالد بن معدان الثقة العابد إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة.

وقال سليم بن حنظلة: بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه، إذا رآه عمر، فعلاه بالدرة فقال: انظر يا أميـر المؤمنين ما تصنع؟ فقال عمر: إن هذه ذلـة للتـابع وفتنـة للمتبوع وهي لفتة عمرية نفسية إلى مـا قـد تحدثـه هـذه

المظاهر البسيطة في بدايتها من عواقب وآثار بعيدة الغـور في نفسية الجماهير التابعة، والقادة المتبوعين.

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوما من منزلـه فاتبعه ناس، فالتفت إليهم فقال: علام تتبعـوني؟ فـوالله لـو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان!

وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تثبت عليه قلوب الحمقى!

وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن؟

وخرج أيوب السختياني فـي سـفر، فشـيعه نـاس كثيرون فقال: لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهـذا كاره، لخشيت المقت من الله عز وجل.

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقـان الثيـاب،

تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل السماء، وتخفـون في أهل الأرض.

وقال الفضيل بن عياض: إن قدرت على ألا تعـرف فافعل، وما عليك ألا تعرف؟ وما عليك أن يثنى عليك، ومـا عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عنـد الله تعالى؟

لا يفهم من هذه الآثـار الـدعوة إلـى الإنطوائيـة والعزلة، فإن الذين رويت عـنهم إنمـا هـم أئمـة ودعـاة مصلحون، كان لهم آثار طيبة في دعوة المجتمع وتوجيهـه وإصلاحه.

لكن الذي يفهم من مجموعها هو اليقظـة لشـهوات النفس الخفية، والحذر من الكوى والمنافذ التي يتسـلل منهـا الشيطان إلى قلب الإنسان، إذا سلطت عليه الأضواء، وأحاط به الأتباع والأشياع، وأشير إليه بالبنان.

والشهرة في ذاتها ليست مذمومة، فليس هناك أشهر من الأنبياء والخلفاء الراشدين، والأئمة المجتهـدين، ولكـن

المذموم هو طلب الشهرة والزعامة والجاه، والحرص عليها، فأما وجودها من غير هذا التكلف والحرص فلا شيء فيـه، وإن كان فيه ـ كما قال الغزالي ـ فتنة على الضـعفاء دون الأقوياء.

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ويحمده الناس عليه، فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن" خرجه مسلم، وخرجه ابن ماجه، وعنده: "الرجل يعمـل العمـل لله فيحبه الناس عليه"، وبهذا المعنى فسره الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وابن جرير الطبري وغيرهم.

وكذلك الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل، فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: "لـه أجـران: أجر السر، وأجر العلانية".

## اتهام النفس

٢. إن المخلص يتهم نفسه دائما بالتفريط في جنب الله، والتقصير في أداء الواجبات، ولا يسيطر على قلبه الغرور بالعمل والأعجاب بالنفس، بل هو دائما يخشى من سيئاته ألا تغفر، ويخاف على حسناته ألا تقبل، وقد بكى بعض الصالحين في مرضه بكاء شديدا، فقال بعض عواده: كيف تبكي؟ وأنت قد صمت وقمت، وجاهدت وتصدقت، وحججت واعتمرت، وعلمت وذكرت؟ فقال: وما يدريني أن شيئا منها في ميزاني؟ وأنها مقبولة عند ربي؟ والله تعالى يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين).

ومنبع التقوى إنما هو القلب، ولذا أضافها القرآن إليه فقال: (فإنها من تقوى القلوب)، وقال صلى الله عليه وسلم: "التقوى ههنا" وكررها ثلاثا، وأشار إلى صدره.

وقد سألت السيدة عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يصدق عليه قوله تعالى: (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أهم الذين يسرقون ويزنون ويشربون الخمر وهم يخافون الله عز وجل؟ فقال: "لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون

ويتصدقون، وهم يخافون ألا يتقبل منهم: (أولئك يسـارعون في الخيرات وهم لها سابقون) (رواه أحمد وغيره).

والمخلص يخاف أبدا من تسلل الرياء إلى نفسه وهو لا يشعر، ولهذا سمى "الشهوة الخفية" التي تدسس إلى نفـس السالك للطريق دون أن ينتبه لها.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله محذرا ومنبهـا: "حـظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعـة بـاطن خفي، ومداواة ما يخفى صعب علاجه، ربما دخـل الريـاء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليـك. استشـرافك أن يعلـم الخلق بخصوصيتك، دليل على عدم صدقك فـي عبوديتـك. غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغـب عـن وجـود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك"!

## العمل في صمت بعيدا عن الأضواء

٣. أن يكون العمل الصامت أحب إليه مـن العمـل الذي يحفه ضجيج الإعلان وطنين الشهرة، إنـه يفضـل أن يكون أبدا "الجندي المجهول" الذي يبذل ولا يعرف، ويضحي

ولا يذكر، ويؤثر أن يكون من الجماعة كالجذر من الشجرة: به قوامها وحياتها، ولكنه مستور في باطن الأرض لا تـراه العيون، أو كالأساس من البناء، لولا ما ارتفـع جـدار، ولا أظل سقف، ولا قام بيت، ولكن أحـدا لا يـراه كمـا يـرى الجدران والشرفات، قال شوقي:

خفى الأساس عن العيون تواضعا      من بعد ما رفع البناء مشيدا!

وقد مر بنا حديث معاذ: "إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة".

## ألا يطلب المدح ولا يغتر به

٤. ومن دلائل الإخلاص: ألا يطلب مدح المادحين، ولا يحرص عليه، وإذا مدحه مادح لم يغره ذلك عن حقيقـة نفسه التي بين جنبيه، فهو أدرى بخباياها والتواءاتها، ممـن يخدعهم بريق الظواهر عن بواطن الضمائر.

وقد قال ابن عطاء الله في "حكمه": الناس يمدحونك لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها. أجهل الناس من ترك اليقين ما عنده الظن ما عند الناس!

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا مدح يقول: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن تبعوه وأحاطوا به: لو علمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان! وهو من أعلام الصحابة، وأئمة الهدى، ومصابيح الإسلام.

وأثنى جماعة على أحد الربانيين، فقال معتذرا إلى ربه: اللهم إن هؤلاء لا يعرفونني، وأنت وحدك تعرفني!

وقال أحد الصالحين يناجي ربه، وقد أثنى عليه بعض الناس، وأضفوا عليه ما أضفوا من خصال الخير، ومكارم الأخلاق:

**خيرا، وما** بي **من خير يظنون** بي		**عبد ظلوم كما تدري ولكن**ني

**عيو**بي **كلها عن عيو م سترت**		**ثوبا** جم**يلا من الستر وألبست**ني

يحبو**ني، وما أنا بالذي فأمسوا**		**شبهو**ني **بالغير** يحب**، ولكن**

**تفضح**ني في **القيامة بينهم فلا**		**مولاي** في **موقف الحشر وكن** لي **يا**

لقد أشار هذا الشاعر الصالح إلى معنى لطيف مهم، وهو جميل ستر الله تعالى على عباده، فكم من عيوب خفيـة سترها الله تعالى بستره عن أعين الخلق، لـو كشـفها الله ـ جل جلاله ـ عن عبده المستور، لنزلت رتبته، وربما سقطت منزلته، ولكن فضل الله يأبى إلا أن يستر ضعف عباده، منة منه وكرما.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله: من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره، فالفضل لمن أكرمك وسترك، لـيس لمـن مدحك وشكرك.

ويقول أبو العتاهية:

**بنا أن أحسن الله**		**لا تفوح الخطايا**

**المستور منا فإذا**		**فضوح** بين **جنبيه!**

## ألا يبخل بمدح من يستحق المدح

٥. ومن دلائل الإخلاص: ألا يبخل بمدح من يستحق المدح، والإشادة بكل من هو أهل للإشادة به، فهنـاك آفتـان خطيرتان: الأولى: توجيه المدح والثناء لمـن لا يسـتحقه، والثانية: الضن بالمدح عمن يستحقه.

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسـلم جماعـة مـن أصحابه، منوها بفضائلهم ومناقبهم، كقوله عن أبي بكر: "لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خلـيلا، ولكـن أخي وصاحبي".

وقوله لعمر: "لو سلكت فجا لسـلك الشـيطان فجـا آخر".

وقوله عن عثمان: "إنه رجل تستحي منه الملائكة".

وقال لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى".

وقال عن أبى عبيدة: "أمين هذه الأمة".

وكثيرون نوه بهم صلى الله عليه وسلم، وأبرز ما لهم من مواهب وملكات، وبعضهم كانوا شبابا، مثل أسـامة بـن زيد الذي ولاه قيادة جيش فيه بعض كبار الصحابة، وعتـاب بن أسيد، الذي استخلفه على مكة وهو ابن العشرين، ومعـاذ بن جبل الذي أرسله إلى اليمن وهو شاب، وبعضـهم قدمـه على السابقين في الإسلام، لمزية عنده، كما فعل مع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص.

وربما كان حجز المدح عن أهله، لهوى خفـى فـي نفسه، أو حسد متمكن، فهو يخاف مزاحمته في مركـزه، أو منافسته في منزلته، وهو لا يملك أن يطلق لسانه بذمه، فعلى الأقل يسكت عن مدحه.

وقد رأينا عمر الفاروق، يطلب رأي ابن عباس فـي بعض الأمور، وهو شاب صغير السن، ويقول له أمام كبـار الصحابة: تكلم يا ابن عباس ولا يمنعك حداثة سنك.

## استواء العمل في القيادة والجندية

٦. ومن دلائل الإخلاص: أن المخلص لله يستوي عنده أن يعمل قائدا، وأن يعمل جنديا في آخر الصفوف، مادام في كلا الموقعين إرضاء لله تعالى، فلا يستولي على قلبه حب الظهور، وتصدر الصفوف، والرغبة في الرياسة والزعامة، واعتلاء المراكز القيادية، بل ربما آثر الجندية خشية التفريط في واجبات القيادة وتبعاتها، وهو على كل حال لا يحرص عليها ولا يطلبها لنفسه، ولكن إذا حملها حملها، واستعان بالله على القيام بحقها، وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الصنف من الناس، فقال: "طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، وإن في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة".

ورضي الله عن خالد بن الوليد الذي عزل عن إمارة الجيش، وهو القائد المظفر، فعمل تحت قيادة أبى عبيدة دون تململ ولا تذمر، وكان نعم المشير والمعين.

كما حذر الرسول الكريم من سؤال الإمارة وطلبها.

فقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال لعبد الرحمن بن سمرة: "لا تسـأل الإمـارة، فإنـك إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها، وإن سألتها وكلت إليها".

## الاحتفال برضا الله لا الناس

٧. ألا يبالي برضا الناس إذا كان من ورائه سـخط الله عز وجل، فإن الناس يختلفون أشد الاختلاف في أذواقهم ومواقفهم، وتفكيرهم وميولهم، وأهدافهم وطرائقهم، ومحاولة إرضائهم غاية لا تدرك، ومطلب لا ينال.

وفي هذا قال الشاعر:

**الناس يرضى كل نفس ومن** في **النفوس مدى بعيد؟** وبين **هوى**

وقال الآخر:

عني **كرام** عشيرتي **إذا رضيت** **!غضبانا على لئامها فلازال**

ولو أرضى اللئام لأغضب ـ بلا ريب ـ الكرام.

والمخلص قد أراح نفسه من عناء هذا كلـه، وكـان شعاره مع الله:

| | |
|---|---|
| فليتك تحلو والحياة مريرة | وليتك ترضى والأنام غضاب! |
| وليت الذي بيني وبينك عامر | وبيني وبين العالمين خراب! |
| إذا صح منك الود، فالكل هين | وكل الذي فوق التراب تراب! |

## جعل الرضا والسخط لله لا للنفس

٨. أن يكون حبه وبغضه، وعطاؤه ومنعه، ورضاه وغضبه، لله ولدينه، لا لنفسه ومنافعه... فلا يكـون كأولئـك النفعيين من المنافقين الذين ذمهم الله في كتابه، وقال فـيهم: (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون).

لقد ترى بعض العاملين في ميدان الدعوة إذا مسـه أحد إخوانه بكلمة تؤذيه أو جرح شعوره بتصرف يسوءه في نفسه، أو في أحد من خاصته وذويه، سرعان مـا يغضـب ويتبرم، ويدع العمل والحركـة، ويعتـزل ميـدان الجهـاد والدعوة.

والإخلاص للغاية يقتضيه أن يصر على دعوته، ويثبت على اتجاهه، مهما أخطأ في حقه المخطئون، وقصر المقصرون، أو أسرف المسرفون، لأنه يعمل لله لا لنفسه ولا لذويه، ولا لفلان أو علان من الناس.

ودعوة الله ليست حكرا على أحد وملكا له، إنها دعوة الجميع، فلا يجوز أن يتخلى عنها مؤمن بها من أجل موقف هذا أو تصرف ذاك.

## الصبر على طول الطريق

٩. أن لا يحمله طول الطريق، واستبطاء الثمرة، وتأخر النجاح، ومتاعب العمل مع الناس المختلفين في أذواقهم وميولهم، على الكسل والتراخي أو التفلت، أو التوقف في منتصف الطريق، إنه لا يعمل للنجاح فحسب، أو للنصر فقط، بل لرضا الله وامتثال أمره قبل كل شيء، وبعد كل شيء، وقد عاش نوح شيخ المرسلين في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعو ويبلغ ولم يؤمن معه إلا قليل، برغم تفننه في أساليب الدعوة، وتنويع أوقاتها، وتغيير صيغها، كما قال

الله تعالى على لسانه: (رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا).

ومع هذا ظل نوح عليه السلام تسعمائة وخمسين عاما يدعو قومه، تعاقب عليه نحو أربعين جيلا، وهم عنه معرضون، وهو عليهم حريص.

وحكى القرآن الكريم لنا نموذجا مؤمنا في سورة البروج، قدموا أرواحهم في سبيل الله، وصبروا على اصطلاء النار ذات الوقود، والكفرة الطغاة عليهم شهود، ولم يبالوا بما أصابهم في سبيل الله، ولم يقولوا: ماذا يفيد استشهادنا لدعوتنا؟ لأن عليهم الثبات والبذل. وعلى الله إنجاح الدعوة، ومن يدري لعل دماءهم تكون هي الغذاء لشجرة الإيمان من بعدهم!

إن عمل المخلص أساسا لله عز وجل، فهو ثابت عليه، مستمر فيه، أما الثمرة والنتيجة في الدنيا، فهو يدعها لله تعالى: يهيئ أسبابها، ويحدد أجلها، وما عليه إلا أن

يتحرى ويجتهد وسعه، فإن تحققت فالحمد لله، وإن تعثرت أو تعذرت، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إن الله لا يسأل الناس في الآخرة: لماذا لم ينتصروا، ولكن يسألهم: لماذا لم تجاهدوا؟ ولا يسألهم: لماذا لم تنجحوا، بل يسألهم: لماذا لم تعملوا؟!

## الفرح بكل كفاية تبرز

١٠. الفرح بكل ذي كفاية يبرز في صف العـاملين ليحمل الراية أو يسهم في العمل، وإتاحة الفرصـة لكـل ذي موهبة أن يأخذ مكانه، دون تعويق له أو ضيق به، أو حسـد له، أو ضجر منه، بل نرى المخلص إذا وجد من هو خيـر منه في تحمل تبعته، تنحى له راضيا، وقدمـه علـى نفسـه طائعا، وسعد بأن يأخذ خطوة إلى الخلف.

إن بعض العاملين ـ وخصوصا في الصفوف الأولى ـ يتشبث بموقعه القيادي، ويستقتل دونه، ولا يتنـازل عنـه بحال، ويقول: منصب ولانيه الله فلا أدعه، أو قميص ألبسنيه فلا أنزعه! وكأنه معين من قبل السماء! هذا مع أن الزمن قد

تغير، والقوة قد ضعفت، ولكل زمان رجاله، كما لكل مقـام مقاله، وكثيرا ما يعاب الحكـام علـى تشـبثهم بكراسـيهم واستماتتهم في الحفاظ عليها، بدعوى أنهم الأقدر على تسيير السفينة، وحمايتها من الرياح الهوج، فلا يجوز أن يقع دعـاة الإسلام فيما ينتقدون به غيرهم، وينكرونه علـيهم، كمـا لا ينبغي هنا التذرع بمصلحة الدعوة - كما تـذرع الآخـرون بمصلحة الوطن والأمة - فربما كـان ذلـك مـن أحابيـل الشيطان، وسراديبه الملتوية للدخول إلـى قلـوب العـاملين للإسلام، فإذا هم يسقطون فرائس لحب الذات، وحب الجـاه، وحب الدنيا، وهم يحسبون أنهم يخدمون الدين.

وكم من جماعات وحركات أصابها مـن الطغيـان الخارجي، أو من التمزق الداخلي، أو من الفتور والذبول في الفكر وفي العمل، وفقدان المبادرة والتجديد، نتيجة لمطـامح فرد أو أفراد فيها، أبوا أن يخلوا مكانهم لغيرهم، ناسـين أن الأرض تدور، وأن الفلك يسير، وأن العالم يتغير، ولكنهم - وحدهم - لا يدورون مع الأرض، ولا يسيرون مع الفلـك، ولا يتغيرون مع الزمان والمكان والإنسان!

ومن هؤلاء من يحمل نفسه من الأعباء والمسؤوليات فوق ما يحتمله كاهله، وهو في الواقع يسد الطريق على غيره من المواهب الشابة، والكفايات الفتية، التي تستطيع أن تشارك في حمل الأمانة، وأن يكون لها نصيبها من بناء المسؤولية، وإذا كانت الخبرة تنقصهم، فهم يكسبونها بالممارسة، وينضجونها بالمعاناة، وإنما العلم بالتعلم.

## الحرص على العمل الأنفع

١١. ومن دلائل الإخلاص: الحرص على العمل الأرضى لله، لا الأرضى للنفس، فيؤثر المخلص العمل الأكثر نفعا، والأعمق أثرا، وإن لم يكن له فيه هوى، ولا له فيه لذة ونشوة.

فقد يتلذذ بصيام النافلة، أو بصلاة الضحى، ولو شغل هذا الوقت بإصلاح ذات البين لكان أولى، وفي الحديث: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة".

وقد يجد متعة نفسية، ولذة روحية في الاعتمار في كل رمضان، والحج في كل موسم، ولو قيل له: ابذل ما تنفقه لإخوانك الذين يتعرضون للهلاك في فلسطين أو البوسنة أو كشمير، لم ينشرح لذلك صدره، وهو ما اعتبره الغزالي من "باب الغرور".

وقد ذهب أحد المحسنين من بعض البلاد الغنية إلى بلد إفريقي ليبني فيه مسجدا، فلقيه بعض العقلاء من أهل البلد، واقترحوا عليه أن يرمم عددا من المساجد القديمة الآيلة للسقوط، وهي في مناطق آهلة بالسكان، ولا يستغني الناس عنها، ويمكنه أن يرمم عشرة مساجد قديمة بما ينفقه على بناء مسجد واحد حديث، ولكنه أبى إلا أن يشيد مسجدا يحمل اسمه الكريم!

## السلامة من آفة العجب

ومن تمام الإخلاص: ألا يفسد العمل بعد تمامه بالإعجاب به، والاطمئنان إليه، والزهو به، وهذا يعميه عما فيه من خلل قد شابه، أو دخل أصابه، والشأن في المؤمن أن

يكون بعد أداء العمل خائفا أن يكون قد قصر فيه أو أخل به من حيث يشعر أو لا يشعر، ولهذا يخشى ألا يقبل منه، والله تعالى يقول: (إنما يتقبل الله من المتقين).

ومن الكلمات النيرة المنسوبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه قوله: سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك!

أخذ هذا المعنى ابن عطاء الله السكندري في "حكمه" فقال: ربما فتح الله لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية، فكانت سببا في الوصول، معصية أورثت ذلا وافتقارا، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا!

ومن هنا حذر القرآن الكريم من اتباع الصدقة بالمن أو الأذى، خشية أن يبطلها ويضيع أثرها.

يقول تعالى: (قول معروف ومغفرة خير من صـدقة يتبعها أذى، والله غني حليم، يا أيها الذين آمنـوا لا تبطلـوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئـاء النـاس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليـه تـراب فأصابه وابل فتركه صلدا).

كما حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من العجـب وجعله من "المهلكات"، فروى عنه ابن عمر: "ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات.. فأما المهلكات، فشح مطاع، وهوى متبـع، وإعجاب المرء بنفسه".

وقد حكى لنا القرآن ما حدث للمسلمين فـي غـزوة حنين، فقد نصرهم الله في بدر وهم أذلـة، ونصـرهم فـي الخندق بعد أن زاغت الأبصار، وبلغت القلـوب الحنـاجر، وظنوا بالله الظنون، وزلزلوا زلزالا شديدا، ونصـرهم فـي خيبر وفي فتح مكة، ولكنهم في حنين أعجبتهم كثرتهم، فلـم تغن عنهم شيئا، حتى رجعوا إلى الله، وعرفوا أن النصر من عنده، يقول تعالى: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويـوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت علـيكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)..الآية.

والمؤمن البصير هو الذي يكل أمره كلـه إلـى الله، فيوقن أن النصر ليس إلا من عنده: (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)، وأن العز ليس إلا عند بابه: (مـن كـان

يريد العزة فلله العزة جميعا)، وأن التوفيق إلى الصـالحات ليس إلا من فضله: (وما توفيقي إلا بالله)، والهداية ليست إلا منه: (من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليـا مرشدا).

**يعنك الله فيما تريده إذا** لم **!لمخلوق إليك سبيل فليس**
**يرشدك** في **كل مسلك وإن هو** لم **!أن السماك دليل ضللت ولو**

## الحذر من تزكية النفس

والقرآن يحذر من تزكية النفس، بمعنى مدحها والثناء عليها، كما قال تعالى: (هو أعلم بكم إذ أنشأكم مـن الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم، فلا تزكوا أنفسكم، هو أعلم بمن أتقى)

وذم اليهود والنصارى الذين زكوا أنفسهم، فقال: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي مـن يشـاء ولا يظلمون فتيلا).

وذلك أنهم قالوا، كما حكى عنهم القرآن: (نحن أبناء الله وأحباؤه)، ورد عليهم بقوله: (بل أنتم بشر ممـن خلـق، يغفر لمن يشاء ويعذب مـن يشـاء، ولله ملـك السـموات والأرض وما بينهما، وإليه المصير).

ولا يجوز لمن يعمل الصـالحات أن يـذكرها بعـد الفراغ منها، إلا تحديثا بنعمة ربه عليه: (وأما بنعمـة ربـك فحدث)، أو ليرغب غيره فيقتدي به: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها"، أو دفاعا عن نفسه أمـام اتهـام ألصق به وهو منه برئ، أو لغير ذلك من الأسباب الباعثـة، وهذا مشروع لمن قوى باطنه في المعرفـة بـالله، وعـدم الالتفات إلى ما سواه، وأمن على نفسه من تسلل آفتي العجب والرياء، ولم يكن قصده اكتساب محمـدة النـاس والمنزلـة عندهم، وقل من يسلم من ذلك.. والله المستعان.

فليحذر المسلم من إعجابه بنفسه، وما يقدمـه مـن حسنات وصالحات، واعتقاده أنه وحده المفلح، وغيـره مـن الخاسرين، أو أنه وجماعته هم "الفرقة الناجية" وكل المسلمين

من الهالكين، أو أنهم وحدهم "الطائفة المنصورة" وغيرهم من المخذولين!

إن هذه النظرة إلى النفس هي "العجب المهلك"، وتلك النظرة إلى المسلمين هي "الاحتقار المردي".

وفي الحديث الصحيح: "إذا قال الرجل: هلك النـاس فهو أهلكهم".

روى الحديث بضم الكاف وبفتحها، ومعنى الضـم: أنه هو "أهلكهم"، بمعنى أسرعهم وأشدهم هلاكـا، لغـروره بنفسه، وإعجابه بعمله، واحتقاره لغيره.

ومعنى الرواية بالفتح "أهلكهم": أنه الذي تسـبب ـ هو وأمثاله ـ في هلاكهم، بالاستعلاء عليهم، وتيئيسهم مـن روح الله.

قال الإمام النووي: "وهذا النهي لمن قال ذلك، عجبا بنفسه، وتصاغرا للناس، وارتفاعا عليهم، فهذا هو الحـرام. وأما من قاله لما يرى في الناس من نقص في أمـر ديـنهم،

وقاله تحزنا عليهم، وعلى الدين، فلا بأس به. فكـذا فسـره العلماء وفصلوه، وممن قاله من الأئمة الأعلام: مالـك بـن أنس، والخطابي، والحميدي، وآخرون.

وفي الحديث الصحيح الآخر: "بحسب امـرئ مـن الشر أن يحقر أخاه المسلم" فمن حق المسلم على المسلم: ألا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، وكيف يحقر الإنسـان أخـاه، وهما فرعان من أصل واحد؟

# الفصل السادس

# الطاعة والمعصية بين الكتمان والإظهار

## الطاعة بين الكتمان والإظهار

ينبغي على المؤمن السالك الطريق إلى الله تعالى: أن يجتهد في إخفاء طاعاته، وستر أعماله الصالحات عن أعين الخلق وآذانهم ما استطاع، مكتفيا بأن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الخلق لا يملكون له ضرا ولا نفعـا، وأن رضـوان الله تعالى ومثوبته فوق رضا الخلق وثنائهم.

وهذا بالنسبة إلى النوافل والتطوعات، أما الفـرائض والأركان، فهذه يجب إظهارها، تعظيما لشـعائر الإسـلام، وإبرازا لقوة تمسك المسلمين به، ومنعا للتهمة وإساءة الظـن بالمسلم أن يظن به تضييع ما فرض الله عليه، وضربا للمثل حتى يقتدي به غيره، ويتشبه به الآخرون، فإن الخير يغري بالخير، والصلاح يدعو إلى الصلاح.

هذا هو الأصل في الفرائض: الإظهار والإعلان، أما الأصل في النوافل فهو الإخفاء والكتمان.

ومع هذا يمكن أن تظهر نوافل الطاعات والصالحات من المسلم من غير قصد لإظهارها مراءاة للناس، وقد يفرح بذلك ويبتهج، فرح الإنسان بكل خير حققه لنفسه.

أ. وهو فرح محمود إذا كان شكرا لله تعـالى علـى نعمة التوفيق للطاعة، وحسن لطفه سبحانه بإخفاء السـيئات وإظهار الحسنات، كما قال تعالى: (قل بفضل الله وبرحمتـه فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).

ومن أذكار الصالحين: سبحان من أظهـر الجميـل، وستر القبيح!

ب. وللتفاؤل بأن يفعل الله تعالى معه ذلك في الآخرة كما فعله في الدنيا، أي يستر مساوئه، ويظهر محاسنه، كمـا في القول المأثور: "ما ستر الله على عبده في الدنيا إلا وستر عليه في الآخرة".

وفي معناه قال الشاعر:

**الله فيما مضى لقد أحسن** **فيما بقى كذلك يحسن!**

فيكون الفرح الأول فرحا بالقبول في الحال، من غير ملاحظة للاستقبال، والفرح الثاني التفاتا إلى حـال المـال، وحسن المنال.

ج. وقد يكون فرحه بظهور الطاعة، لأنـه سـيكون حافزا لغيره، ليقتدي به، ويحذو حذوه، فيكثـر الصـالحون، ويزداد عدد المطيعين لله تعالى، ويتسـع نطـاق الخيـرات، والأعمال الصالحات، فيتضاعف الأجر عند الله تعالى.

د. وقد يكون فرحه، لأن المطلعـين علـى عملـه سيحبونه في الله، ويرضون عنه، ويثنون عليه، وبهذا يثابون على ذلك، ويدخلون في أوثق عرا الإيمان، فقـد جـاء فـي الحديث: "أوثق عرا الإيمان: الحب في الله والبغض في الله"، وفي حديث أنس المتفق عليه: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سـواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله"... الحديث.

ويعرف صدق هذه الدعوى ـ دعوى فرحه بإثابـة الناس لحبهم له في الله، أو في فرحه باقتدائهم به في عمله ـ إذا استوى عنده مدحه ومدح غيره من الصالحين.

هـ. ومما يحمد لأجله إظهار العمل الصالح: ترغيب الآخرين فيه، وسن السنة الحسنة ليقتدى بها فيهتـدى، وفـي صحيح مسلم من حديث جرير بن عبدالله: "من سـن سـنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامـة، مـن غير أن ينقص من أجورهم شيء".

وقد أمر الأنبياء والرسل بالإظهار للطاعات، لأن الله تعالى جعلهم أسوة لأتباعهم، كما قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا).

ومثل الأنبياء: خلفاؤهم وورثتهم من العلماء والدعاة والصلحاء، من كل من يقتدى به.

وقال الحسن: قد علم المسـلمون أن السـر أحـرز العملين، ولكن في الإظهار أيضا قد تكون الفائدة.

فلذا أثنى الله على السر والعلانية، فقال تعالى: (إن تبدو الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم).

وقال: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وقال علي رضي الله عنه: تصدقت بدرهم في ليل وآخر في النهار، وبدرهم سرا، وآخر علانية، عملا بالآية.

وبهذا يكون قد عبد الله في كل الأوقات، وعلى كل الأحوال، وإن كان الإسرار بالصدقة أفضل، وخصوصا إذا خشي على نفسه الرياء، والفتنة بمحمدة الناس، أو كان في الإسرار رعاية لحرمة الفقير، وحفظ لكرامته، لا سيما إن كان من المستورين المتعففين، الذين وصفهم القرآن بقوله: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا).

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه عن "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" ذكر أحد الأصـناف، وهو: "رجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله مـا أنفقت يمينه".

وهذا هو المقام الأعلى، ولكن إذا أبدى الصـدقة، أو أظهر العمل الصالح، لسبب من الأسباب التي ذكرناها مـن قبل، فلا حرج عليه، والواجب عليه أن يفتش عـن دخيلـة نفسه، ويحترس من خداعها، فإنها أمارة بالسـوء، خداعـة غرارة، وليحذر ما استطاع من الرياء، فربما كان هناك رياء في غاية الخفاء، يتسلل إليه، وهو لا يشعر، فيحـبط عملـه، وهو يحسب أنه يحسن صنعا، وهنا لابد له من الاستعانة بالله جل وعلا، والبراءة من الحول والقوة، واللجوء إلى حول الله سبحانه وقوته، ومن الدعاء المأثور: "اللهم إنا نعوذ بـك أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه".

## كتمان الذنوب

وإذا كان الشرع قد جـاء بالرخصـة فـي إظهـار الطاعات، وخصوصا الفرائض بل والنوافـل فـي بعـض الأحيان، لتحقيق أهداف ذكرناها، فإنه لـم يشـرع إظهـار المعاصي والإعلان عنها، بـل أمـر بإخفائهـا إن وقعـت، وكتمانها عن الغير ما استطاع، لا مراءاة للناس، ولا طلبـا لثنائهم، وظهورا بصورة يحبونها، وإن كانت غير صـورته الحقيقية.

بل إنما يحمد كتمان الذنوب، وكراهة إطلاع النـاس على العيوب، لعدة أسباب:

أولا: لأننا مأمورون إننا إذا ابتلينا بمعاصـي الله أن نستتر بستره سبحانه، ولا نفضح أنفسـنا، وفـي الحـديث: "اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها، فمن ألم بشـيء منها فليستتر بستر الله تعالى".

من أجل هذا يكره ظهور المعصية من غيره، كمـا يكرهها من نفسه، وفي الصحيح: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، ومفهومه: أن يكره له ما يكره لنفسه.

وثانيا: للتحامي عن هتك ستره، وظهور أمره، خوفا من سقوط وقع المعاصي من النفس، وجرأتها عليهـا، فـإن النفس متى ألفـت ظهـور الـذنوب، زاد انهماكهـا فيهـا، واسترسلت في شهواتها بارتكابها، ولم تبال باجتنابها.

وهذا الخوف من هتك الستر في الدنيا يتبعه خـوف من الهتك في الآخرة، وهو أشـد وأخـزى. ولهـذا يقـول الطيبون: اللهم كما سترت علينا في الدنيا، استر علينـا فـي الآخرة، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، يـوم العـرض عليك.

وثالثا: لئلا يقلده غيره، فيكون سـببا فـي انتشـار معاصي الله في الأرض، وتجرئ الناس عليهـا، فحسـبه أن يتورط هو في المعصية، ويسأل الله التوبة والمغفرة، ولكن لا يظهرها فتشيع وتتسع، فإنها تعدى كما يعدى الأجراب السليم، وتؤذي كما يؤذي نافخ الكير جاره، فإذا غرق هو، فهو يكره أن يغرق غيره معه.

ولهذا ينبغي للعاصي أن يخفي معصيته حتى عن أقرب الناس إليه، مثل أهله وولده، وخادمه، حتى لا يتأسوا به.

ورابعا: ليكون في مظنة العفو والمعافاة من الله تعالى، ولا يدخل في زمرة المتبجحين المجاهرين بالسوء، المتفاخرين بما ارتكبوا من موبقات، وما اصطنعوا من مغامرات، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح، وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه".

وخامسا: ليكون من أهل الحياء، الذين يمنعهم حياؤهم وسلامة طبعهم من إظهار المعصية، وفي الصحيحين عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء. فقال: "دعه، فإن الحياء من الإيمان".

وفيهما عن أبي هريرة: "الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان".

وفيهما عن عمران بن حصين: "الحياء لا يـأتي إلا بخير".

وسادسا: ليدخل في زمرة المشهود لهم مـن الأمـة بالخير، والناس شهداء الله في الأرض، وكما قيـل: ألسـنة الخلق أقلام الحق، وكما قال النبي صـلى الله عليـه وسـلم للصحابة في جنازة مرت فأثنوا عليها خيرا فقال: "وجبـت"، وأخرى أثنوا عليها شرا" فقال: "وجبت"، فقـال عمـر بـن الخطاب: ما وجبت؟ قال: "هذا أثنيتم عليه خيرا، فوجبت لـه الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض".

وقال عليه الصلاة والسلام: "ما من مسلم يموت يشهد له أهل أربعة أبيات من جيرانه الأدنين: إنهم لا يعلمـون إلا خيرا، إلا قال الله: قد قبلت علمكم فيه، وغفرت لـه مـا لا تعلمون".

وسابعا: لئلا يتسبب في ذم الناس لـه، فيقعـوا فـي المعصية بسبب هذا الذم، أو بتجاوزهم الحد، حتى يذم بمـا ليس فيه، أو بأكثر مما فعل، كما هو المعتاد في مثـل هـذه المواقف، وهو لا يحب أن يعصى الله تعالى بسببه، ويكفيه ما ابتلي به من معصية، وهو لهذا يتألم إذا ذم الناس غيره مـن العصاة كما يتألم لذم نفسه.

وثامنا: لئلا يتألم بذم الناس إذا اطلعوا على معصيته، فإن الذم مؤلم للقلب، وهذا أمر جبلي فطر عليه الإنسان، كما أن الضرب يؤلم الجوارح بالطبع، وربما صار هذا التـألم ـ وخصوصا إذا استمر واشتد ـ مانعا من الخشوع في العبادة، بسبب الانفعال والتوتر الناشئ عن تألمه.

ولا جناح على المسلم أن يبتعد ويهرب من كل مـا يؤلم جسده أو قلبه، فليس هذا بحرام.

وإن كان المقام الأعلى أن تزول عنه رؤية الخلـق، فيستوي عنده ذامه ومادحه، لعلمه أن الأمـر كلـه بيـد الله تعالى، وأنه هو الضار النافع، وأن العباد كلهـم مقهـورون تحت سلطانه، روى الترمذي من حديث البراء بـن عـازب

وحسنه: أن رجلا قام فقال: يا رسول الله، إن حمدي زيـن، وإن ذمي شين! فقال عليه الصـلاة والسـلام "ذاك الله عـز وجل".

وتاسعا: لخوفه أن يقصد بسوء أو أذى إذا ظهـرت معصيته، وهذا أمر وراء الذم، فإن الذم مكروه مـن حيـث يشعر القلب بنقصانه، وإن كان ممن يؤمن شره، وهنا يخاف شر من يطلع على ذنبه، ولا حرج على المسـلم أن يجنـب نفسه الأذى بتجنب أسبابه ما استطاع.

## حب محبة الناس

ولا جناح على المسلم إذا كان يحب مـن النـاس أن يحبوه ويوادوه، فهذا أمر فطري فـي الإنسـان: أن يحـب ويحب.

ومن ناحية أخرى، هو يرجو أن تكون محبة الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، دلـيلا علـى محبـة الله تبـارك وتعالى، فهو الذي وضع له القبول في قلوب عباده، وسـتر قبيحه، وأظهر جميله، وقد قال تعـالى: (إن الـذين آمنـوا

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا)، فهو يرجـو أن يكون منهم، فإن من أحبه تعالى جعله محبوبا في قلوبهم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أحب الله عبدا نـادى جبريل، فقال: إن الله قد أحب فلانا، فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانـا فـأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض".

وأرفع من هذا المقام: أن يكون أكبر همه حـب الله تعالى، ورضاه سبحانه عنه، ولا يبالي أرضي الخلق عنه أم سخطوا، أحبوا أم كرهوا، على حد قول القائل:

**منك الود فالكل هين إذا صح ... وكل الذي فوق التراب تراب!**

وإذا تعلق قلبه بحب بعض الناس فلأنهم أحبـاب الله تعالى كالذين وصفهم الله تعالى بقوله: (يحبهم ويحبونه).

وفي الأدعية المأثورة: "اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك".

# الفصل السابع
# ضرورة الإخلاص لحملة الدعوة

## لماذا كان الإخلاص ضرورة

إن العمل لسيادة الإسلام وعودته لقيادة الحياة بعقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته، إنما هو عبادة وقربة إلـى الله عز وجل من ناحية، وجهاد في سبيل الله من ناحية أخـرى. وتجريد النية لله في هذه العبادة وذلك الجهاد: أمـر أساسـي لقبول العمل ولنجاحه معا، فالنية المدخولـة تفسـد العمـل، وتلوث النفس، وتضعف الصف، وتحـبط الأجـر. والنيـة الصالحة، تصلح العمل، وتقوي العـزم، وتفسـح الطريـق، وتعين على إزالة العقبات، قال تعالى: (إن يريـدا إصـلاحا يوفق الله بينهما) فدل على أهمية الإرادة والنية فـي إنجـاز المهمة المنشودة، فهي سبب توفيق الله تعالى وتأييده.

وقد كتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيـز ناصحا له، فقال: اعلم أن عون الله تعالى للعبد علـى قـدر

النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نيته نقص قدره.

ولهذا السر بدأ الإمـام البخـاري كتابـه "الجـامع الصحيح" بهذا الحديث الذي عده بعض العلماء ربع الإسـلام أو ثلثه: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى مـا هاجر إليه".

وقد روى أن رجلا هاجر إلى المدينة من أجل امرأة يحبها ويريد أن يتزوجها تسمى أم قيس فنسب إليها وقيل لـه "مهاجر أم قيس".

إن على المسلم العامل للإسلام أن يفتش في زوايـا قلبه عن حقيقة نواياه وبواعثه، فإن كان فيها حـظ للـدنيا أو للشيطان، جاهد أن ينقي قلبه من دخله، وأن يجرد نيتـه لله، وأن ينذر نفسه محررا لربه، كما قالت امرأة عمـران: (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل منـي، إنـك أنـت السميع العليم). وهذه الكلمة من أم مريم: (محررا) توحي بأن

سنة الله ألا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا من كل شركة، محررا من كل عبودية لغيره.

إن الحياة لا يسود فيها الحق، وينشر الخير، وتعلـو كلمة الإيمان، وتخفق أعلام الفضيلة: بتجار المبادئ، الذين لا يعملون إلا ليغنموا ويستفيدوا في الدنيا، ولا بالمرائين الـذين لا يعملون إلا ليراهم الناس، ويسمعوا بهم، ويتحدثوا عـنهم، ويشيروا إليهم بالبنان، بل ينتصر الحق والخيـر والإيمـان والفضيلة: بالمخلصين الـذين يعتنقـون المبـادئ مـؤثرين مستأثرين مضحين لا مستفيدين، معطين لا آخذين.

## المخلصون هم جند الدعوات

إن المخلصين الذين يبتغون بعملهم وجه الله، يسمون فوق المنافع الذاتية والمصالح الشخصية، هم وحـدهم جنـد الدعوات، وحملة الرسالات، وورثة النبـوات، وهـم الـذين ينتصرون بالدعوة، وتنتصر بهم، ولو كانوا فقـراء المـال، ضعفاء الجاه، مغمورين في الناس، وهم الذين جـاء فـيهم

الحديث الشريف: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره" (رواه مسلم).

وقد روى النسائي وغيره عن سعد بن أبي وقاص ـ هو من هو سبقا في الإسلام وقرابة من رسول الله ـ أنه ظن في نفسه يوما أن له فضلا على من دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسـلم: "إنما ينصر الله هذه الأمة بضـعيفها: بـدعوتهم وصـلاتهم وإخلاصهم".

وهؤلاء الضعفاء المغمورون المخلصون، هم الـذين أمر الله رسوله أن يصبر نفسه معهم، ولا يفرط فـي واحـد منهم، ولا تعدو عيناه عنهم، إلى الشخصيات المرموقة فـي المجتمع، من ذوي المكانة والثراء والجاه، ممن يظـن أنهـم ينصرون دعوته بجاههم ومنزلتهم في الناس، يقول سبحانه: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا).

إن جندي العقيـدة لا يجـري وراء المطـامع، ولا يخطف بصره بريق الشهرة، ولا يجذب قلبه سـطوة الجـاه والنفوذ، إن الدنيا ليست أكبر همه ولا مبلغ علمه، إنه ينزلها منزلتها، فلا تزن عنده جناح بعوضة عند الله تعالى، إن أكبر همه أن يتقبله الله في عباده الصالحين، وجنـده الصـادقين، وحزبه المفلحين.

إن وضوح هذا الهدف أمر ضروري للعاملين لنصرة الإسلام، فقد يكون هدفهم إقامة دولة إسـلامية، أو حضـارة إسلامية، أو مجتمع إسلامي، أو نحو ذلك من الأهداف التـي يسعون إليها، ويحرصون علـى تحقيقهـا، ولكـن هـدف الأهداف، وغاية الغايات من وراء ذلك كله، هو: رضوان الله عز وجل وابتغاء ما عنده، ومن أجل ذلك يستمرئون المـر، ويسترخصون كل تضحية مادامت في سبيل الله.

## خطر الطفيليين

وعلى رجال الدعوات أن يحذروا على صفوفهم من الطفيليين الطامحين الطامعين، الذين يتسللون إلى الجماعـات

المؤمنة تسلل الميكروبات إلى الجسم السليم، ويتسلقون على أكتاف الآخرين، كلامهم كثير، وعملهم قليل، يقلون عند الفزع، ويكثرون عند الطمع، حتى تكشفهم المحن، ويميز الله الخبيث من الطيب.

أجل.. إن شر ما تصاب به الدعوات الربانية، هم أولئك المحتالون، الذين يتخذونها قنطرة إلى مآربهم، وسلما إلى مطامعهم، متظاهرين بالتقوى، متوسلين بالقول المعسول، والحماس المفتعل، والملمس الناعم، وباطنهم خراب، وقلوبهم هواء! هؤلاء هم الذين حذر منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يغترون أم علي يجترئون؟ فبي حلفت: لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانا".

## صنفان متمايزان

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى صنفين متمايزين متباينين: صنف يعيش لنفسه وشهواته، عبدا للمال والزينة والأبهة، يسير وراء مصلحته وشهوته أنى سارت، فإن تحققت رضي وأثنى، وإلا ذم وسخط.

وصنف يعيش للحق وحده، مستعدا للجهاد والبذل، غير منتظر منفعة ولا شهرة، حيث وضع، عمل وأنتج، دون ضجيج ولا مباهاة.

في هذين الصنفين جاء الحديث الصحيح: "تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش! طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع".

# الفصل الثامن

# من ثمرات الإخلاص

**للإخلاص ثمرات طيبة في النفس والحياة نجملها فيما يلي:**

## السكينة النفسية

١. فهو يمنح صاحبه سكينة نفسية، وطمأنينة قلبيـة، تجعله منشرح الصدر، مستريح الفؤاد، فقد اجتمع قلبه علـى غاية واحدة، هي رضا الله عز وجل، وانحصرت همومه في هم واحد، هو سلوك الطريق الذي يوصل إلى مرضاته، ولا ريب أن وضوح الغاية، واستقامة الطريـق إليهـا: يـريح الإنسان من البلبلة والاضطراب بين الاتجاهـات، وتنـازع الرغبات، وتعدد السبل.

وقد ضرب الله مثلا للمؤمن الموحد بالعبد الذي لـه سيد واحد، عرف ما يرضيه وما يسخطه، فجعل كل همه في إرضائه، واتباع ما يحبه وللمشرك بالعبد الذي يملكه شركاء متشاكسون، كل واحد يأمره بخلاف ما يأمره به الآخر، وكل يريد منه غير ما يريد صاحبه، فهمه شعاع، وقلبـه أوزاع،

قال تعالى: (ضرب الله مثلا رجلا فيه شـركاء متشاكسـون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا، الحمد لله، بل أكثـرهم لا يعلمون).

ومعنى "سلما" له: أي خالصا له لا يشاركه فيه أحد.

وبهذا تحرر الإنسان المؤمن ـ بإخلاصه العبودية لله ـ من تعاسة العبودية لغيره: "تعس عبـد الـدينار، وعبـد الدرهم، وعبد القطيفة" وسعد بالعبودية لله وحده.

لقد جمع همومه في هم واحد هو رضوان الله تعالى، وجعل نيته وقصده في الآخرة، فهان عليه كل ما يلقـى فـي هذه الدنيا.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من جعل الهموم هما واحدا، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبته الهموم، لم يبـال الله في أي أدوية الدنيا هلك".

ومعنى: تشعبته الهموم: توزعته وتقسمت قلبه وإرادته: بين المال والجاه والشهوات وما أكثرها، بخلاف المؤمن الذي ركز كل همه في إرضاء ربه.

ويقول عليه الصلاة والسلام: "من كان الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا، وهي راغمة".

## القوة الروحية

٢. والإخلاص يمنح المخلص قوة روحية هائلة، مستمدة من سمو الغاية التي أخلص لها نفسه، وحرر لها إرادته، وهو رضا الله ومثوبته.

فإن الطامع في مال أو منصب أو لقب أو زعامة: ضعيف كل الضعف، إذا لاح له بادرة أمل في تحقيق ما يطمع فيه من دنيا، ضعيف أمام الذين يملكون إعطاءه ما يطمح إليه، ضعيف إذا خاف فوات مغنم يرجوه، أما الذي باعها لله، فهو موصول بالقوة التي لا تضعف، والقدرة التي

لا تعجز، ولهذا كان في تجرده وإخلاصه أقوى من كل قـوة مادية يراها الناس.

وقد صور حديث ـ رواه الترمذي بسند ضـعيف ـ مقدار القوة الروحية الهائلة التي يملكها من أخلص قلبـه لله، يقول الحديث الذي رواه أنس بن مالك:

"لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلـق الجبـال، فألقاها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من خلق الجبـال، فقالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الجبـال؟ قـال: نعم، الحديد، قالت: يا رب، هل في خلقك شـيء أشـد مـن الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يا رب، هل في خلقك شـيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت: يا رب، هل في خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه، ويخفيها عن شماله".

وهكذا يصور لنا هذا الحديث أن القوة الروحية أعظم من كل القوى المادية، وأن قوة الإيمان والإخلاص تفوق قوة الجبال التي تمسك الأرض أن تميد، وقوة الحديد الذي يقطـع

الجبال، وقوة النار التي تذيب الحديد، وقوة الماء الذي يطفئ النار، وقوة الريح التي تحرك الماء، أقوى من ذلك كله قلب ابن آدم حين يخلص لله، فيتصدق بيمينه لا تعلم بها شماله. وهو تصوير نبوي بليغ معبر عن اجتهاده في إخفاء صدقته بعدا عن مظنة مراءاة الناس.

وذكر الغزالي في "الإحياء" قصة ترمز إلى هذا المعنى، وهو: ما يمنحه الإخلاص من قوة غير عادية لصاحبه، لا توجد عند غيره.

إنها قصة العابد الذي سمع أن شجرة يعبدها الناس من دون الله، فحمل فأسه، وذهب مصمما على أن يقطعها، ويقطع معها دابر فتنة تقديسها وعبادتها، وفي الطريق قابله إبليس فأراد أن يثنيه فأبى، فتصارعا، فصرع العابد إبليس، وبدا كأنه ريشة في يده، وهنا بدأ إبليس في مفاوضة ماكرة مع العابد: أن يعود ويدع الشجرة، فإن قطعها لا يفيد، فقد يعبدون شجرة أخرى، وتعهد أن يعطيه كل يوم دينارا، يجده تحت وسادته، فينتفع به، وينفق منه على المساكين، وما زال

إبليس بالرجل، حتى اقتنع، وسلمه مبلغا مقدما، ثم ظل مدة يتسلم فيها الدينار كل صباح وفق ما اتفقا عليه.

ولكن العابد فوجئ يوما بأنه لم يجد الدينار تحت الوسادة، كما اعتاد، فصبر عدة أيام، لعل صاحبه يفي له بما وعده، بيد أنه لم يفعل، فما كان من العابد إلا أن حمل فأسه، وذهب ليقطع الشجرة من جديد، فقابله إبليس، فتحداه، وتنازعا واصطرعا، فصرع إبليس الرجل هذه المرة، وكان كأنه عصفور بين رجليه!

وهنا سأله العابد: ما الذي جعله يغلبه هذه المرة، بعد أن انتصر على إبليس بجدارة في المرة الأولى؟ هنا قال له إبليس: لقد كان غضبك في المرة الأولى لله، فكان لديك من القوة ما لم يكن لي قبل بها، ولا طاقة لمواجهته، فهزمت أمامك بسرعة. أما هذه المرة فكان غضبك لانقطاع الدينار، فلم يكن عندك من القوة ما كان من قبل، وهزمت أمامي بسرعة البرق.

وهنا ظهر الفرق بين الغضب للدرهم والدينار، والغضب للواحد القهار.

إن المخلص لله لا يلين للوعد، ولا ينحني للوعيد، لا يذله طمع، ولا يثنيه خوف، أسوته في ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الذي عرض عليه الملك والشرف والمال وسائر أعراض الدنيا ليكف عن دعوته، فقال في إصرار وصلابة: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

أما لو كان للنبي صلى الله عليه وسلم شهوة خفية في مال أو ملك أو سيادة لضعفت مقاومته أمام العروض المغرية، يقدمها له سادة قريش، لكنه عرف غايته فأخلص لها، وعرف ربه فلم يشرك به شيئا.

## الاستمرار في العمل

٣. ومن آثار الإخلاص: أنه يمد العامل بقوة الاستمرار، فإن الذي يعمل للناس، والذي يعمل لشهوة البطن أو الفرج، يكف إذا لم يجد ما يشبع شهوته، والذي يعمل أملا في شهرة أو منصب، يتراخى ويتثاقل إذا لاح له أن أمله

بعيد المنال، والذي يعمل لوجه الرئيس أو الأمير، ينقطـع أو يتوانى إذا عزل الرئيس أو مات الأمير.

أما الذي يعمل لله فلا ينقطع ولا ينثني ولا يسـترخي أبدا، لأن الذي يعمل له لا يغيب ولا يزول، فوجه الله باق إذا غابت وجوه البشر، أو هلك الخلق كل الخلق: (كـل شـيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون).

ولهذا قال الصالحون: ما كان لله دام واتصل، ومـا كان لغير الله انقطع وانفصل! وهذا ما صدقه الواقـع، ومـا رأيناه ولمسناه، ولازلنا نراه ونلمسه في كل زمان ومكان.

## تحويل المباحات والعاديات إلى عبادات

٤. والإخلاص هو "إكسير" الأعمال، الذي إذا وضع على أي عمل ولو كان من المباحات والعادات حولـه إلـى عبادة وقربة لله تعالى، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد: "إنك ما تنفق نفقة تبغي بها وجه الله تعـالى إلا أثبت عليها، حتى اللقمة تضعها في في (أي فم) امرأتك".

وقال تعالى في شأن الذين يجاهدون في سبيله: (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سـبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نـيلا إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجـر المحسـنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون).

فجعل جوعهم وعطشهم ومشيهم ونفقتهم مما يسـجل لهم في رصيد حسناتهم عند الله عز وجل، مادام ذلـك فـي سبيل الله، ولن تكون هذه الأشياء فـي سـبيل الله إذا أداهـا المسلم لتكون كلمة الله هي العليا.

وأكثر من ذلك ما جاء في مثوبة من ارتـبط فرسـا ليجاهد عليها في سبيل الله.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صـلى الله عليه وسلم قال: "من أحتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بـالله، وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه، وروثه وبوله، في ميزانـه يوم القيامة"... يعني: حسنات!

وذلك أن الوسائل والآلات بحسب المقاصد والغايات، فكل ما يعين على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ونصرة دعوته، من عدة وآلة وتدريب وكسب خبرة ومهـارة، فهـو قربة إلى الله، فبها الأجر والثواب.

## إحراز ثواب العمل وإن لم يتمه أو لم يعمله

٥. ومن بركات الإخلاص لله: أن المخلص يستطيع أن يحرز ثواب العمل كاملا وإن لم يقدر على إتمامه بالفعل، لنستمع إلى قول الله تعالى: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكـان الله غفورا رحيما).

بل يستطيع المسلم بنيته الخالصة لله أن يدرك ثـواب العمل كاملا، وإن لم يؤده ولم يشرع فيه، ولهذا أمثلة كثيـرة جاءت بها الأحاديث.

روى البخاري عن أنس بن مالك قال: رجعنـا مـن غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "إن أقواما

خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا، حبسهم العذر".

وروى النسائي وابن ماجه عن أبي الدرداء يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم: "من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان صدقة عليه من ربه".

وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه".

وقال أيضا: "من طلب الشهادة صادقا، أعطيها، ولو لم تصبه"، والحديثان يؤكدان وصفا أو شرطا لابد منه، لمن يحصل على "الشهادة" وهو على فراشه، لم يقتل ولم يصب، وهو أن يكون سؤاله للشهادة "بصدق"، أن يطلبها "صادقا"، فما كل من يسأل الشهادة بلسانه، يكون صادقا في أعماقه، فالمدار على السرائر، والله أعلم بها.

وقد يتقرب المخلص إلى ربه بعمـل فيخطـئ فـي تأديته، ويضعه في غير موضعه، فتأتي نيته الصالحة شفيعا، فتصحح له خطأه، وتكمل له نقصه.

وفي هذا جاء حديث الصحيحين في الرجـل الـذي تصدق في ثلاث ليال فصادفت صدقته مرة رجـلا سـارقا، ومرة امرأة زانية، والثالثة رجلا غنيا، ولكنه حمد الله علـى كل حال، وأراد الله تعالى أن يثبت قلبه ويشرح صدره، فأتاه في المنام من يقول له: "أما صدقتك على سـارق فلعلـه أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق ممـا أعطـاه الله"، وتقبـل الله صدقته ببركة نيته، ولم يضع أثرها في الدنيا ولا في الآخرة، وذلك جزاء المخلصين.

## النصر والكفاية الإلهية

٦. ومن ثمرات الإخلاص: أن المخلص مؤيد مـن الله، مكفي به سبحانه، كما قال تعـالى: (ألـيس الله بكـاف عبده).

وعلى قدر إخلاص المرء لربه، وتجرده له، يكون مدد الله تعالى وعونه وكفايته وولايته، إن الإمداد على قدر الاستعداد: إمداد الله بالنصر والتأييد، أو بالتوفيق والتسديد، على حسب ما في القلوب من تجريد النية، وصفاء الطوية، يقول تعالى: (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم).

ويقول: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا).

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه في رسالته الشهيرة في القضاء قوله: "فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله".

قال ابن القيم في شرح هذه الكلمات في "الإعلام": "هذا شقيق كلام النبوة، وهو جدير بأن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن

الإنفاق منهما نفع غيره، وانتفع غاية الانتفاع: فأمـا الكلمـة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر وفصله، فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإنه سبحانه مع الـذين اتقـوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النيـة لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معـه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟

فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلـى نفسـه أولا، وكان قيامه بالله ولله لم يقم له شيء، ولو كادتـه السـماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له فرجا ومخرجا، وإنما يؤتى العبد من تفريطه وتقصيره فـي هـذه الأمـور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه فـي باطل لم ينصر، وإن نصر نصرا عارضا فلا عاقبة له، وهو مذموم مخذول. وإن قام في حق لكن لم يقم فيه لله، وإنما قام لطلب المحمدة والشكور والجزاء من الخلق، أو التوصل إلى غرض دنيوي، كان هو المقصود أولا، والقيام فـي الحـق

وسيلة إليه، فهذا لم تضمن له النصرة، فإن الله إنمـا ضـمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكـون كلمـة الله هـي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقـين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق. وإذا كانـت الدولـة لأهـل الباطـل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبدا، فإن كان صاحبه محقا كان منصورا له العاقبة، وإن كان مـبطلا لـم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قـام بنفسـه وقوته، ولم يقم بالله مستعينا به متوكلا عليه، مفوضا إليـه، بريا من الحول والقوة إلا به، فله مـن الخـذلان وضـعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك. ونكتة المسألة أن تجريـد التوحيدين في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيـد منصور، ولو توالت عليه زمر الأعداء.

قال الإمام أحمد: حدثنا داود، أنبأنا شعبة، عن واقـد بن محمد بن زيد، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: من أسخط الناس برضاء الله عز وجل كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس".

## تأييد الله تعالى ومعونته في الشدائد والأزمات

٧. ومن ثمـرات الإخـلاص: أن الله تعـالى يمـد المخاص بعونه، ويحرسه بعينه التي لا تنام، ولا يتخلى عنه إذا حلت بساحته الخطوب، وأحاطت به الشدائد والكـروب، فهو سبحانه يستجيب دعاءه، ويلبي نـداءه، ويكشـف عنـه الغمة.

ومن عجيب ما ذكره القرآن في ذلك: اسـتجابة الله تعالى دعاء المشركين، إذا جرت بهم الفلـك فـي البحـر، وهاجت عليهم الريح، وأحاط بهم الموج مـن كـل مكـان، فيدعون الله في تلك اللحظات بصدق وإخـلاص، فيسـتجيب لهم، وإن غيروا بعد ذلك وبدلوا، يقول الله تعالى: (هو الذي يسيركم في البر والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم المـوج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم، دعوا الله مخلصين لـه الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجـاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق).

وإنما أنجاهم واستجاب لهم، لأنهم (دعوا الله مخلصين له الدين) فقد رجعوا في تلك اللحظة إلى الفطرة، وسقطت الآلهة المزيفة، ولم يبق لديهم إلا الله يدعونه بإخلاص ويتجهون إليه.

ومن أبرز الأمثلة والوقائع في أثر الإخلاص في إنقاذ المكروب من كربته: قصة الثلاثة "أصحاب الغار".

فمن رحمة الله تعالى: أن الأرض لا تخلو من المخلصين، فهم للحياة الروحية كالماء والهواء للحياة المادية، وقد عرف التاريخ نماذج رائعة، تجسد الإخلاص في وقائع مضيئة، تضرب المثل، وتبرز الأسوة للناس يحسن هنا أن نذكر بعضا منها، لنتخذ منه عظة وقدوة.

بدأ الحافظ المنذري كتابه "الترغيب والترهيب" بالترغيب في الإخلاص والصدق والنية الصالحة، ثم جعل أول حديث في كتابه حديث "أصحاب الغار".

فمن رحمه الله تعالى: أن الأرض لا تخلو من المخلصين، فهم للحياة الروحية كالماء والهواء للحياة المادية،

وقد عرف التاريخ نماذج رائعة، تجسد الإخلاص في وقـائع مضيئة، تضرب المثل، وتبرز الأسوة للناس يحسن هنـا أن نذكر بعضها منها، لنتخذ منه عظة وقدوة.

بدأ الحافظ المنذري كتابـه "الترغيـب والترهيـب" بالترغيب في الإخلاص والصدق والنية الصالحة، ثم جعـل أول حديث في كتابه حديث "أصحاب الغار" الذي قص علينا النبي صلى الله عليه وسلم قصتهم، لما فيها من عبرة لأولـي الألباب.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "انطلق ثلاثة نفر ممن كـان قبلكم، حتى آواهم المبيت إلى غـار، فـدخلوه، فانحـدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجـيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا، فنأى بي طلـب شـجر يوما، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبـت لهمـا غبوقهمـا، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهمـا أهـلا أو مـالا،

فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجـر ـ زاد بعض الرواة: "والصبية يتضاغون عند قـدمي" ـ ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلـك ابتغـاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصـخرة فانفرجـت شيئا لا يستطيع الخروج منها".

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وقال الآخر: اللهـم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السـنين، فجـاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلى بينـي وبـين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا يحـل لـك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتهـا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحـن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يسـتطيعون الخـروج منها".

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "وقال الثالث: اللهـم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرتهم غير رجل واحد ترك

الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثـرت منـه الأمـوال، فجاءني بعد حين، فقال لي: يا عبدالله، أد إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغـنم والرقيـق، فقال: يا عبدالله، لا تستهزئ بي! فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فساقه: فلم يترك منه شيئا، اللهم إن كنت فعلـت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنـا مـا نحـن فيـه، فانفرجـت الصخرة، فخرجوا يمشون" (رواه البخاري ومسلم).

## خلاص المجتمعات واستقامة الحياة

ولا يفوتنا أن نذكر بما نبهنا عليه من قبل: أن ثمـرة الإخلاص ليست مقصورة على الآخرة، بمعنى أننا لا نطلب الإخلاص لتكون أعمالنا مقبولة عند الله، ونفوز في الآخـرة بالجنة، ونزحزح عن الناس فحسب، فهناك فـوق هـذا: أن الإخلاص مطلوب لكي تستقيم الأمور في هذه الدنيا، ويقـوم العدل، ويزول الظلم والظلام، وتتخلص المجتمعات من آثار الفساد.

إنما تفسد الحيـاة، وتختـل موازينهـا، إذا اختفـى الإخلاص، وبرز النفاق، وعلا صوت المنـافقين، وراجـت بضاعتهم. إن هؤلاء لا يبالون – في سبيل شهوات أنفسـهم ومصالحهم الآنية المادية الدنيويـة العاجلـة – أن يجعلـوا الأقزام عمالقة، والشياطين ملائكـة، واللصـوص أشـرف الناس، وأن يتهموا الشرفاء، ويخونوا الأمناء، ويكذبوا علـى الأبرياء، وأن يجعلوا السراب ماء، والأصدقاء لآلـئ، كمـا رأينا ذلك في بعض الشعراء قديما، وبعض الصحفيين حديثا.

إن حب الدنيا، وحب مظاهرها الكاذبة، مـن المـال والجاه والمنصب والزعامة والظهـور، هـو الـذي صـنع الفراعنة والجبابرة، الذين طغوا في الـبلاد، فـأكثروا فيهـا الفساد، والذي مكن لهؤلاء ومهد لهم الأرض، هم المنـافقون الذين يتمسحون بأعقابهم، ويبررون كل تصرفاتهم، ويجعلون كل أقوالهم حكما ودررا، وكل أعمالهم بطولات وغررا.

ولا ينقذ الأمم من الضـياع والكسـاد والفسـاد إلا المخلصون الذين يقومون لله لا للناس، ويعملـون للحـق لا

للهوى، ويجاهدون لإعلاء كلمة الله، لا لإعلاء كلمة فلان أو علان.

إن الخلاص كل الخلاص، لا يتحقق إلا بالإخلاص.

# الفصل التاسع

## من بواعث الإخلاص

هناك أمور تعين المسلم السالك طريق الله على إخلاص النية والعمل لله تعالى. إنها بواعث نفسية، ودوافع روحية، وعوامل فكرية، وجوانب عملية، إذا توافرت وتوطدت فهي جديرة أن تؤثر في عقل السالك وضميره، وتدفعه إلى الأمام في طريق المخلصين، وتساعده على تحرير نفسه، وتنقية دواعيه من الشوائب الذاتية والدنيوية.

## العلم الراسخ

١. أول هذه المعينات أو البواعث: أن يعلم علما يستقينه في أعماقه بأهمية الإخلاص وضرورته الدينية، وثمراته في الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى لا يقبل عملا إلا بإخلاص، مهما تكن صورته، وأنه تعالى مطلع على ما في قلبه، فهو يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه خافية، كما قال

إبراهيم عليه السلام: (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء).

ولا يتم ذلك إلا بأن يقرأ ويكرر ما جاء في القـرآن والسنة في ذلك، وما جاء في كلام الصالحين، ويستيقن مـن خطر الرياء، وحب الجاه والشهرة، وحب الدنيا.. وتأكد هذه المعارف في النفس ورسوخها يعينها على أن تـتخلص مـن أهوائها الذاتية، ومن شهواتها الدنيوية.

فإن مقام "الإخلاص" كغيره من المقامات أو الأخلاق الربانية مركب مكون من ثلاثة عناصر:

١. عنصر معرفي إدراكي.

٢. وعنصر وجداني انفعالي.

٣. وعنصر عملي إرادي.

وهذا ما يعبر عنه الإمام الغزالي في "الإحياء" عـادة بأنه معجون مركب من: علم، وحال، وعمل.

ولا ريب أن أول هذه العناصر هو العلم والمعرفة، فالعلم هو الذي يسبق في الوجود، ولا يمكن أن يتوجه الإنسان إلى شيء لا يدركه ولا يعلمه بوجه من الوجوه، إنما يأتي التوجه الوجداني - المحبة والرغبة، أو البغض والرهبة - نتيجة للمعرفة والإدراك. وكلما قويت المعرفة، ورسخ العلم، حتى وصل إلى درجة اليقين، كان تأثيره في الوجدان أقوى وأعمق، فالمرء يعرف أولا، فيتأثر ثانيا، فيتحرك ثالثا. وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: (وليعلم الذين أوتوا العلم إنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم).

كان العطف هنا بحرف "الفاء" للدلالة على الترتيب والتعقيب، فهؤلاء الذين أوتوا العلم يعلمون أن القرآن هو الحق من عند الله، فيترتب على هذا العلم الإيمان به، ويترتب على هذا الإيمان: حركة قلوبهم بالإخبات والخشوع لله تعالى.

## صحبة أهل الإخلاص

٢. ومما يعين على الإخلاص: صحبة أهل الإخلاص ومعايشتهم، والحياة في رحابهم، ليتأسى بهم،

ويأخذ عنهم، ويتخلق بأخلاقهم، فإن التأسي بهم صلاح، والتشبه بهم فلاح.

وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم أثر الصحبة والمجالسة في الصاحب والمجالس تصويرا بليغا معبرا، فقال: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل حامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (أي يعطيك) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير أما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة".

ومن رحمة الله بالناس: أن الأرض لا تخلو من هؤلاء، فليجتهد سالك طريق الآخرة في البحث عنهم، والاقتباس منهم، فهم كما جاء في الصحيح: "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".

لقد نوه الحكماء والشعراء والأدباء بالصحبة والأصحاب. وقال في ذلك الشاعر:

عن المرء لا تسأل، وسل عن قرينـه فكـل قـرين بالمقارن يقتدي

لا ريب أن من أعظم البواعـث علـى الإخـلاص: صحبة المخلصين، الذين نذروا حياتهم لله، وبـاعوا أنفسـهم وأموالهم لله، هؤلاء الذين يجالسونك في الله، ويحبونك فـي الله، وتحبهم في الله.. ليسوا من الذين يقبلون عليك، ويلتفون بك، إذا أقبلت عليك الدنيا، ويعرضون عنك إذا أدبرت عنك الدنيا، فهم ذباب طمع، وفراش نار.

هؤلاء الذين أمر الله رسوله الكريم أن يصبر نفسـه معهم، ولا تعدو عيناه عنهم، وذلك في قوله سبحانه: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطـع مـن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا).

إن الذي يصحب هؤلاء يتأثر بهم، ويأخـذ عـنهم، ويقتبس منهم فضائلهم، بالأسوة الحسنة، وبالحال المـؤثرة، ولهذا قال السلف: "حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقـال ألف رجل في رجل". يعنون بحاله: سلوكه وخلقه وعمله.

وقد جاء عن سلمان رضي الله عنه: "مثل الأخـوين المؤمنين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، ومـا التقـى مؤمنان قط إلى أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا".

المهم ألا تعيش وحدك، ولا تخلـد إلـى صـومعة العزلة، وحياة الرهبنة، فلا رهبانية في الإسـلام، والمـؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذي يخـالط الناس ولا يصبر على أذاهم، والخير والرحمة مع الجماعـة، والهلاك والضياع مع الانفراد والشذوذ عن الجماعة. ويد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار، والشيطان مع الواحـد، وهو مع الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصـية، فهي مع القطيع محمية به، محروسة ببركة التجمع، وهي إذا شردت عنه التهمها الذئب منفـردة، والشـيطان هـو ذئـب الإنسان. والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، والجماعـة قـوة على الطاعة، وعون على الحماية من المعصية.

فتعرف على إخوانك في الله، وضع يدك في أيديهم، وتعلم منهم وعلمهم، وتعاون معهم علـى البـر والتقـوى، وتواص معهم بالحق والصبر، تعرف عليهم فـي المسـاجد،

وفي مجالس الخير، وفي حلقات العلم، وفي ميادين الـ دعوة، ولا تخلو الأرض ـ إن شاء الله ـ منهم. قال تعالى: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقال تعالى: (والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملـوا الصـالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)، فأوص غيرك بـالحق، وتقبل الوصية من غيرك به، وليس هناك مؤمن أصغر مـن أن يوصى، ولا أكبر من أن يوصي، وهذا معنى التواصـي، الذي يقتضي التفاعل مـن الجـانبين، وقـد قـال تعـالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض).

وفي الحديث: "المؤمن مرآة المؤمن".

## قراءة سير المخلصين

٣. ومما يعين على الإخلاص، ويبعث عليه: قـراءة سير المخلصين، والتعرف على حياتهم، للتأثر بهم، والاهتداء بهداهم، فإذا لم يستطع السالك إلى الله أن يجـد المخلصـين الأحياء ليصاحبهم، فلا أقل مـن أن يصـحب المخلصـين الأموات، فإن الأخلاق كالأفكار لا تموت بموت أصحابها.

فهذه القراءة لون من الصحبة والمعايشة، ولكنها صحبة فكرية ونفسية، ومعايشة روحية وإيمانية.

ومن فضل الله تبارك وتعالى: أن في تراثنا كثيرا من "النماذج المخلصة" التي لا يملك من قرأها إلا أن يتأثر بها.

من هذه النماذج نموذج الثلاثة "أصحاب الغار" الذين قص علينا قصتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. حين أطبقت عليهم الصخرة، فلم ينجهم منها إلا أعمال صالحة كانوا قدموها خالصة لوجه الله تعالى، فتوسلوا إلى الله بها، وقال كل واحد منهم: "اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه". ففرج الله عنهم، وأخرجهم من ورطتهم بسبب إخلاصهم. وقد مر بنا هذا النموذج مفصلا فليرجع إليه.

ومن هذه النماذج ما جاء في الحديث الذي رواه النسائي في سننه عن شداد بن الهاد رضي الله عنه: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه.

فلما كانت غزاته غنم النبي صلى الله عليـه وسـلم فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكـان يرعـى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه، فجاء به إلـى النبـي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا؟ قال: "قسمته لك".

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسـهم، فـأموت، فأدخـل الجنة، فقال: "إن تصدق الله يصدقك".

فلبثوا قليلا: ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأتى به إلـى النبي صلى الله عليه وسلم يحمل، قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أهو هو"؟ قالوا: نعم، قـال: "صدق الله فصدقه".

ثم كفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبتـه التـي عليه، ثم قدمه فصلى عليه، وكان بما ظهر من صلاته: "اللهم هذا عبدك، خرج مهاجرا في سبيلك، فقتل شهيدا، أنا شـهيد على ذلك".

ومن ذلك: ما حفل به التاريخ الإسلامي من روائـع البطولات، ووقائع المخلصين الذين نذروا أنفسهم لله، وجعلوا حياتهم كلها لله، وجهادهم كله لله، فلم يشركوا به أحدا.

من هؤلاء: ما كتبه الإمام حسن البنا رضي الله عنه في أحد أحاديث الجمعة في جريـدة "الإخـوان المسـلمون" اليومية عن "صاحب النقب"، وتتلخص قصته في أن المسلمين في إحدى معاركهم وقفوا أمام حصن منيـع مـن حصـون عدوهم، وطال حصارهم لهذا الحصن، ثم فكر أحد الجنـود في فتح ثغرة أو نقب في جدار الحصن، يتسلل منه، ويفـتح الباب للمقاتلين المسلمين.

فعل ذلك الجندي المسلم، ونقب النقب وحده في هدوء وصمت، مما مكن المسلمين من تحقيق النصر المنشود بأقل التضحيات.

المهم أن قائد المعركة بحث عن "صـاحب النقـب" الذي كان وراء هذا النصر، ولم يتقدم أحد يقول: أنـا هـو. فخطب في جنوده قائلا: أقسمت بالله على من نقب النقـب أو عرف صاحبه إلا دلني عليه.

وبينما القائد في خيمته دخل عليه رجل، وقال له: هل تريد أن تعرف صاحب النقب؟ قال: نعم والله.

قال: أنا أدلك عليه، ولكن له شروطا يطلبها، قال: له كل ما يشترط، فما شروطه رحمك الله؟ قال: ألا تسأله عـن اسمه، ولا تعلن عنه في الناس أو إلى الخليفـة، ولا تكافئـه على عمله، قال: له ذلك، فأين هو؟ قال: أنا هو! فقام القائـد وعانقه. فطالبه بالوفاء بالشرط، فلم يملك القائد إلا الاستجابة، وذاب هذا الجندي المجهول في المحيط الكبير، فلم يره أحـد بعد ذلك.

فكان القائد يدعو الله أن يحشره مع صاحب النقـب، وأن ينصر دينه به وبأمثاله من أهل الإيمان والإخلاص: (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين).

## المجاهدة للنفس

٤. ومن المعينات على الإخلاص: المجاهدة. ونعني بالمجاهدة توجيه الإرادة إلى جهاد النفس الأمـارة بالسـوء، ومقاومة رغباتها الذاتية والدنيوية، حتى تخلص لله تعالى.

ولا يستطيع أحد أن يسلك طريق القوم، وهو مستسلم لأهواء نفسه، وحبها للجاه والظهور، وطموحها إلى الشـهرة والثناء، أو للثروة والمال، أو لغير ذلك من شهوات الـنفس، وزخارف الدنيا. وإنما يسلك الطريق من اصطحب معه إرادة قوية، وتصميما على المجاهـدة، و"الإرادة" هـي الأسـاس، و"المجاهدة" هي المحور.

وإن أخطر شيء على سالك الطريق هو اليأس مـن الانتصار في هذه المعركة، وإلقاء السلاح اعترافا بالهزيمـة النفسية، أو إقرارا بالعجز أو باستحال الوصول.

وقد كان بعض الحكماء يكره من أصحابه وتلاميـذه كلمات ثلاثا، هي: لا أقدر، لا أعرف، مستحيل.

فأما من قال له: لا أقدر، فيقول له: حاول.

وأما من قال له: لا أعرف، فيقول له: تعلم.

وأما من قال له: مستحيل، فيقول له: جرب.

ولاشك أن في مجاهـدة الـنفس صـعوبة ومعانـاة ومشقة، يجدها من يريد طريق الآخرة، وخصوصا فـي أول الأمر، ولكن بالاجتهـاد والمحاولـة والتكـرار والصـبر، والاستعانة بالله تعالى، يسهل الصعب، ويتيسر العسير.

وهذه سنة الله في خلقه: أن من جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، وهذا وعد الله سـبحانه لمن جاهد فيه: أن يهديه سبيله وينير له طريقه، كمـا قـال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهـدينهم سـبلنا، وإن الله لمـع المحسنين).

وهذه الآية مكية، أي أنها نزلت قبل أن يشرع الجهاد بالمعنى العسكري، فهي أحق بأن تكون في ألـوان الجهـاد الأخرى، وفي مقدمتها: جهاد النفس، وهو أول مراتب الجهاد وأولاها.

وفي الحديث الشريف: "المجاهد من جاهد نفسه لله"، أو قال: "في الله عز وجل".

# الدعاء والاستعانة بالله

٥. ومما يقوي ذلك كله ويشد عضد سالك الطريـق إلى الله: أن يستعين بالله تبارك وتعالى على أمره كله، فمنـه وحده العون، وبه التوفيق، وإليه يرجع الأمر كله. وقد علمنا الله تعالى أن نقول في صلواتنا أبـدا: (إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين). فهذه هي حقيقة التوحيد: إفراد الله عز وجل بالعبادة والاستعانة، فلا عبادة إلا له، ولا اسـتعانة إلا بـه تبـارك وتعالى، وفي الصحيح: "استعن بالله ولا تعجز".

والدعاء سلاح المؤمن، وسبب من الأسباب الروحية التي شرعها الله للإنسان ليحقق مطالبه، ويسد حاجاته.

وعندما تعجز وسائل الإنسان الماديـة، أو تضـعف قدرته، أو تهن إرادته، فليس أمامـه إلا بـاب الله الكـريم، يطرقه بالدعاء، ويسأله من فضله، وهو أهل الإجابة، وقد مر بنا الحديث الذي عمله لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونسـتغفرك لما لا نعلمه".